

روائع الأدب العربي
(الأعمال الإبداعية)

طه حسين

دعاء الكروان

Looloo

www.dvd4arab.com



اتيح لهذه القصة أن تبلغ من نفس شاعرنا
العظيم خليل مطران موضع الرضا ، فأهدي
إلى هذه القصيدة الرائعة فضلاً منه أتقبله
فخوراً شكوراً . وأكره أن أؤثر به
نفسى من دون الذين يحبون الشعر الرفيع
بل أكره أن يحملنى التواضع الكاذب على
إخفاء هذه المكرمة التى إن صورت شيئاً
فإنما تصور نفساً كريمة وقلباً عطوفاً :

دُعَاءُ هَذَا الْكَرْوَانِ الَّذِي

خَلَّدَتْهُ فِي مَسْمَعِ الدَّهْرِ

لَهُ صَدَى فِي الْقَلْبِ وَالْفِكْرِ مِنْ

أَشْهَى مَتَاعِ الْقَلْبِ وَالْفِكْرِ

لَكِنَّهُ مُشْجِرٌ بِرَجِيعِهِ

لَمَّا جَرَى فِي ذَلِكَ الْقَفْرِ

إِذْ تَسْكُنُ الْبِيدَاءُ وَهْنًا فَمَا

يَنْبِضُ إِلَّا مُهْجُ السَّفْرِ

والليل في التيه السحيق المدى
يُطبق جفنيه على وزر

والطائر المرتاع في جوه
يُنثر بالأساة في دعر

يُرْن إرنان سهام رمت
حيث رمت بالشعل الحمر

أسال آدمي نخطب مظلولة
مقتولة في زهرة العمر

جنى عليها واهم أنه
يثار للعرض وللطهر

وخامرني حسرة خامرت
شهود ذاك المصرع النكر

أليس للأرواح في بيئها
أواصر من حيث لا تدري

جوهريها فرد وإحساسها
مُشترك في البشع والضمر

حادثة في ريف مصر جرت
ومثلها في الريف كم يجري

قصت علينا قصصاً شائفاً
في كلام أنتى من القطر

مسرودة سرداً على صفوه
أفعل في النفس من الحمر

يا لغة العرب التي كاشفت
طه بما صانت من السر

من أي روض يجنني مثل ما
جناه من أزهارك النضر

من أي بحر والسني درة
يصاد ما صاد من الدر

من أي تبر في غوالي الحلى
يُصاغ ما صاغ من التبر

آيات طه تركت بالهدى
فيم استعارت فتنة السحر

أحدث ما جاءت به طرفة
بديعة في أدب العصر

جلت خيال الشعر في صورة
أغار الشعر من النثر

لم يكن يقدر أني سألقاه قائمة باسمه حين أقبل إلى في ظلمة الليل
يسمى كأنه الحية أو كأنه اللص ، ولكنه لم يكذب يبلغ باب الغرفة ويتبين
شخصي ماثلاً في وسطها وعلى وجهه ابتسامة شاحبة كأنها ابتسامة الأشباح
حتى أخذه شيء من الذعر ، فراجع خطوات ثم قال في صوت أبيض
جعل يأخذ صوته الطبيعي قليلاً قليلاً : ماذا ! ألا تزالين ساهرة إلى
الآن ؟ أتعلمين متى أنت من الليل ؟ قلت : لقد جاوزت ثلثه وما كان
ينبغي لي أن أنام قبل أن ينام سيدي ، فما يدريني لعله يحتاج إلى شيء .
قال وقد عاد إلى ثباته وهدهده نفسه واسترد صوته شيئاً من قبحه المألوفة
ودعابته البغيضة : ما رأيت قبلك خادماً مثلك تحسن العناية بسيدها
وتسهر منتظرة مقدمه إلى آخر الليل . لقد كنت أحسبك نائمة كما تعودت
أرى من سبقك في خدمتي ، وكنت أقدر أني سأجد في إيقاظك بعض
الجهد ؛ فلست أدري ما بال نوم الخدم بثقل حتى كأنهم أموات .
قلت : قد أرحت سيدي من هذا الجهد ، وانتظرت مقدمه كما تعودت
منذ اصطنعت خدمة المترفين الذين لا يحبون إنفاق الليل في دورهم ، فليأمر
سيدي بما يريد . قال وهو يضحك ضحكاً سمجاً وقد مد إلى يداً وددت
لو استطعت قطعها ، ولكني تراجعت حتى لا تبغني : فإن سيدك بأمرك
أن تتبعه .

ثم انحدر إلى غرفته ومضيت في ثره .

ليبك لبيك أيها الطائر العزيز ! ما زلت ساهرة أرقب مقدمك وأنتظر نداءك ، وما كان ينبغي لي أن أنام حتى أحس قربك ، وأسمع صوتك ، وأستجيب لدعائك . ألم أتعود هذا منذ أكنه من عشرين عاماً !

ليبك لبيك أيها الطائر العزيز ! ما أحب صوتك إلى نفسي إذا جئت الليل ، وهذا الكون ، وفامت الحياة ، وانطلقت الأرواح في هذا السكون المظلم ، آمنة لا تخاف ، صامتة لا تسمع !

إن صوتك إذن لأشبه الأشياء بأن يكون صوتاً لروح من هذه الأرواح ليدكرني روح هذه الأنثى التي شهدت مصرعها معي في تلك الليلة المهيبة الرهيبة ، وفي ذلك القضاء العريض الذي لم يكن من سبيل إلى أن يسمع الصوت فيه مهما يرتفع ، ولا أن يجيب المغيب فيه لمن استغاث .

ليبك لبيك أيها الطائر العزيز ! أدن مني إن كان من أخلاقك الدنو ، وأتس إلى إن كان من خصالك الأتس إلى الناس ، واسمع مني وتحدث إلي ، وهلم تذكر تلك المأساة التي شهدناها معاً ، وعجزنا عن أن ندفعها أو نصرف شرها عن تلك النفس الزكية التي أزهقت ، وعن هذا الدم البريء الذي سفك .

فلم نرد حينئذ على أن بعثنا صيحات ترددت في ذلك القضاء العريض لكنها لم تبلغ أذناً ولم تصل إلى قلب ، وإنما صعدت إلى السماء على حين هوى ذلك الجسم الجميل الممزق في تلك الحفرة التي أعدت له إعداداً ، ثم هبل التراب وسويت الأرض ، وأنت تدعو ولا من يستجيب ، وأنا أستغيث ولا من يغيث ، وامرأة متقدمة في السن قد انتحيت ناحية وجلست تذرف دموعها في صمت عميق ، ورجل متقدم في السن قد قام غير

بعيد يسوى الأرض ، ويصب عليها الماء ، ويردها كما كانت ، ثم يتحى قليلاً ويزيل عن جسمه وثيابه آثار الدم والتراب ، ثم يرتفع صوته آمراً أن هلم فقد آن لنا أن نرحل .

منذ ذلك الوقت تم العهد بينك وبين أيها الطائر العزيز على أن تذكر هذه المأساة كلما انتصف الليل حتى تنثر لهذه الفتاة التي غودرت في هذا القضاء ، ثم تذكر هذه المأساة كلما انتصف الليل بعد أن نظفر بالنار ، ليكون في ذكرنا إياها وفاء لهذه النفس التي أزهقت ، ولهذا الدم الذي سفك ، ورضاً عن الانتقام وقد ألم بالآثم المحرم ورد الأمر إلى نصابه ، وأراح هذه النفس التي ما زالت تطلب الرى حتى نظفر بالنار من الذين اعتدوا عليها .

ليبك لبيك أيها الطائر العزيز ! إنا لنتقى كلما انتصف الليل منذ أعوام وأعوام فتدبر بيننا هذا الحديث ، أفندعني أقص أطرافاً منه على الناس لعلهم أن يحملوا فيه عظة تعصم النفوس الزكية من أن تزهق ، والدماء البريئة من أن تراق ؟ !

لقد يعد صوت الكروان قليلاً قليلاً حتى انقطع ولم يلبث منه شيء ، وعاد الليل إلى سكونه الهادئ الثقيل ، واطمأن من حولي كل شيء ، فما أسمع إلا هذه الدقات المنتظمة تصدر عن الساعة غير بعيد ، وهذه الدقات المضطربة المختلفة تصدر عن هذا القلب الحزين . . . وأنا آخذ

نفسى بالهدوء لألائم بينها وبين ما حولها فلا أوفق لبعض ذلك إلا في مشقة وعناء . وأنا أنظر إلى هذه الأشياء حولي في الغرفة فأرى ثراء ويسراً ، وأرى ترفاً وكلفاً بالجمال والفن ، وأنا أمدّ عيني إلى المرأة أمامي وأثبتها في أديمها الصافي الصقيل حيناً فتعود إلى بصورة إلا تكن رائعة بارعة ، فإنها لا تخلو من رواء ونضرة وحسن تنسيق . وما لي أسأل عن صورة هذه المرأة الجمادة الهامدة التي لا تحس شيئاً ولا تشعر بشيء . ولا تعرب عن شيء . وإني لأرى صورتي مرآت ومرآت في غير مرآة من هذه المرايا الحساسة الشاعرة البليغة التي تحسن الإفصاح عما في النفوس وهي العيون ! لقد رأيت صورتي اليوم في غير عين من هذه العيون التي كانت ترمقني مسرعة ، ثم تعود إلى فتطيل النظر إلى قليلاً ، ثم تعود إلى مرة أخرى فتثبت في وجهي لا تكاد تنصرف عنه . وكنت كلما رأيت صورتي في هذه العيون يحيط بها الإعجاب والرغبة والشهوات الآتمة لا أنكر ما أرى ، ولا أكره ما أجد من الشعور ، ولا أردّ نفسي عن هذا الغرور الذي يثيره في المرأة إعجاب الناس بها ونهالكهم عليها .

ثم أنا أنهض من مجلسي ، وأمشي في غرفتي لحظة غير قصيرة ، أذهب فيها وأجىء ، وأقف عند ما يملأ هذه الغرفة من أدوات الترف والنعمة ، فأطيل النظر إليه لا معجبة به ولا مكبرة له ، وإنما أسأل نفسي : أنا صاحبة هذا كله ؟ أنا المالكة لهذا كله ؟ أنا صاحبة هذه الصورة التي تردّها إلى المرأة والتي كانت ترمقها العيون معجبة حين كنت أتناول الشاي في بعض مشاربه عصر اليوم ؟

ثم أنا أفكر غير طويل فإذا أنا أستطيع ، وقد تقدم الليل حتى كاد

يبلغ ثلثيه ، أن أمدّ يدي إلى زرّ كهربائي قريب ، فلا أكاد أمسه حتى يترقّ الباب ، ولا أكاد أرفع صوتي بالإذن حتى تدخل على خادم وضيفة ، حسنة الشكل ، جميلة الزى ، ساهرة مهما يتقدّم الليل لأنني ما زلت ساهرة ، ولأنها لا تستطيع أن تأوى إلى مضجعتها حتى آذن لها بالنوم . ثم أنا أمضي إلى هذه النافذة ، فلا أكاد أفتحها حتى تمتلئ نفسي روعةً وجلالاً لهذه الأشجار النائمة ، وهذه الأزهار المتأرجة ، وهذه الطيور التي تحلم في ثنايا الغصون . وكل هذا لي ملك خالص لا يشاركني فيه أحد ، ولا يزاحمني عليه أحد ، أستطيع أن أعبت به إن شئت ، ومضى شئت ، وكيف شئت ، لا يسألني أحد عما أفعل !

فإذا اجتمعت في نفسي صور هذا النعيم كله أحسست راحة وأمناً وثقة ، ثم لا ألبث أن أحس شيئاً من الكبرياء الغريبة ، لأنني لا ألبث أن أرى صورتي منذ أكثر من عشرين عاماً حين كنت صبية بائسة يائسة ، قد شوه البؤس واليأس شكلها وألقيا على وجهها غشاء كثيباً من الدمامة والقبح . لا ألبث أن أجد هذا الحزن اللاذع العميق حين أذكر هذه المأساة التي كنت أتحدث بها منذ حين إلى هذا الطائر العزيز ، والتي كان يتحدث بها منذ حين إلى هذا الطائر العزيز .

إنّ في أحداث الحياة وخطوبها لعظات وعبراً ! إني لأتحدث الآن إلى نفسي حديثاً ما كان يمكن ولا يتظر أن تتحدث به إلى نفسها تلك الفتاة التي كان الناس يسمونها آمنة ، والتي تسمى الآن سعاد لأنه اسم جميل يلائم المألوف من حسن الاختيار والنظرف في الأسماء .

لقد كانت آمنة تلك فتاة بدوية . انحلت بها وبأختها امرأة من

أهل البادية ، أو من أهل هذا الريف المصرى الذى يشبه البادية ، لأنه منبت في أطراف الأرض الحصبة مما يلي الصحراء الغربية أو مما يلي هذه الهضبات التى يسميها أهل مصر الوسطى بالجليل الغربى .

كانت زهرة أم آمنة وأختها هنادى امرأة بدوية ريفية ، تقيم في قرية من هذه القرى المعلقة بهذه الهضاب والتى لا يستقر أهلها فيها إلا ربما يزيلهم عنها فوج من أفواج الأعراب الذين يقبلون من الصحراء ليتعلموا الاستقرار في الأرض والحياة في أطراف الريف ، ثم يدفعهم فوج آخر فإذا هم يحضون أمامهم مضياً بطيئاً ، يتقلون في أناة ومهل من مكان إلى مكان ، وهم يتقدمون نحو الأرض المتحضرة دائماً حتى يبلغوا حدود البادية أو حدود هذا الريف المتبدى ، وإذا هم على شاطئ القناة التى يسمونها البحر ويزعمون أن يوسف هو الذى احتقرها في الزمن القديم . فإذا أتبع لهم أن يعبروا البحر ، فقليل منهم يحفظ بيداوته ، وأكثرهم يقف في طبقات الزراع ويضيع في عداد الفلاحين .

كانت زهرة أم هاتين الفتاتين تعيش مع زوجها الأعرابي وابنتها في قرية من هذه القرى ، قد اتخذت اسمها في أكبر الظن من بطن من بطون الأعراب أو قبيلة من قبائلهم ، فقد كانت تسمى « بنى وركان » وكان أهل القرية ومن حولها يميلون الألف قليلاً ويذهبون بها نحو الياء ، فما أسرع ما أصبح سبة وعاراً يعاب به أهل القرية ، وكيف لا وقد أصبح اسمها « بين الوركين » وما أسرع ما أصبح أهل القرية يستحيون من اسم قريتهم ويكرهون الانتساب إليها ، ولا سيما حين كانت تدفعهم حاجة البيع والشراء إلى أن يهبطوا المدن . فقد كان اسم قريتهم لا يذكر إلا

أضحك الناس وأجرى على ألسنتهم مزاحاً كثيراً ثقيلًا : « محفظاً لنفس البدوى الذى لم يتعود دعابة القرويين وأهل الحضر .

كانت زهرة تعيش مع زوجها وابنتها عيشة متواضعة هادئة ، فيها رخاء معتدل ، وفيها عزة بهذه الأسرة الضخمة ذات العدد الكثير التى كانت أمناً تتسبب إليها . ولكن أباناً لم يكن صاحب حشمة ووقار وسيرة حسنة وإنما كان زير نساء يحب الدعابة والمجون ، ولا يتحرج مما يتخرج منه الرجل المستقيم . وكانت له في القرية وفي القرى المجاورة خطوب كانت تخيف منه وتخيف عليه .

وكانت أمناً أشق الناس بهذه الخطوب ، تتأذى بها في ذات نفسها — فكم حرقها الغيرة حين كان زوجها يغيب عنها اليوم الكامل أو الليلة الكاملة — وتشفق منها على زوجها هذا الماكن ، فقد كانت تحبه على مجونه وفجوره ، وكانت تعلم أنه يهيئ لنفسه عداوات خطيرة في كل مكان بالحاحه في المجون والفجور ، وتخاف منها على حياة ابنتها ومستقبلها وأمالها في العيش الهنيء .

ولما لقي ما هي فيه من غيرة وإشفاق وفرع ذات ليلة ، إذ جاءها النبأ بأن زوجها قد صرع . ثم يستين الأمر قليلاً قليلاً ، فإذا الرجل قد ذهب ضحية لشهوة من شهوات الآثمة ، فليس له ثأر يطالب به ، وليس من سبيل إلى استعداء السلطان على قاتليه ، وإنما هو العار كل العار قد ألم بهذه المرأة اليائسة وابنتها التقيمتين ، وإذا الأسرة كلها تضيق بهؤلاء النساء ، تكره مكانهن منها ، وتنفيهن عن الأرض ، وتزودهن بقليل من المال وكثير من الرحمة ، وتكرههن على عبور البحر والاندفاع في أرض

الريف يلتصق حياتهم فيها يائسات شقيات ، ليس لهم سند يعتمدون عليه ، ولا ركن يأوون إليه ؛ وإنما هي امرأة وحيدة لها حظ من جمال يُطعم فيها الناس ويغري بها أصحاب المحبون ، وصبيتان بائستان لا تكادان تحسنان شيئاً . والخطوب تنتقل بين من قرية إلى قرية ، ومن ضيعة إلى ضيعة ، يلقي بعض اللين هنا ، ويلقي بعض الشدة هناك ، ولا تستقر بين الأرض في أي حال ، حتى ينسحب إلى هذه المدينة الواسعة ذات الأطراف البعيدة والسكان الكثيرين ، والتي تشقها الطريق الحديدية نصفين ، ويمضي فيها هذا الشيء المروع الخيف الغريب الذي يبعث في الجوارح شراً ونازاً ، وصوتاً ضخماً ، وصغيراً عالياً نحيفاً ، والذي يسمونه القطار ، الذي يركبه الناس يستعينون به على أسفارهم ، كما يستعين أهل البادية والريف بالإبل حيناً ، وبالحمير حيناً آخر ، وبالأقدام في أكثر الأحيان .

هنالك في طرف من أطراف هذه المدينة ، استقرت هذه المرأة مع الصبيتين . لجأت إلى شيخ البلدة أو إلى شيخ العزبة فأواها يوماً ، ثم ابتغى لها ولايتها حجرة ضيقة حقيرة قد أقيمت من الطين ، فأسكنها فيها على أن تدفع أجراها عشرة قروش كلما بدا الهلال . ثم قال لها شيخ العزبة : ما أكثر العمل هنا ! فالتمتى حياتك وحياة ابنتيك في بيوت هؤلاء المترفين الذين لا يعملون في الزرع والحراث ، وإنما يعملون في خدمة الحكومة ، منهم من يخدم في معامل السكر ، ومنهم من يخدم في المركز ، ومنهم من يخدم في المحكمة الأهلية أو الشرعية ، ومنهم مهندس الري ، ومنهم مهندس الطرق ، ثم عند هؤلاء التجار الذين لا يتاجرون فيما تُخرج الأرض من الحب ، فهؤلاء فلاحون أو كالفلاحين ، وإنما يتاجرون ، في هذه الأمتعة

والعروض التي لا تأتي من الريف ولا تصنع في المدينة ، وإنما تأتي من مصر ، هناك حيث الناس لا ينطقون كما ننتطق ولا يعيشون كما نعيش . عند هؤلاء التجار الذين يبيعون الأقمشة والأحذية والأثاث ، يجلبونها من مصر ويبيعونها في المدينة وفي القرى ، ويربحون منها الأموال الضخمة ، ويعيشون في بيوتهم عيشة السادة والأمراء : لا يأكلون على الأرض وإنما يأكلون على الموائد . لا يأكلون الذرة ، وإنما يأكلون خبز الحنطة . لا يأكلون في أطباق النحاس . وإنما يأكلون في أطباق من الخزف . لا يسمحون لنسائهم أن يخرجن متبذلات ، وإنما يخرجن ملففات في هذه الثياب يتخذنها من الحرير ، وعلى وجوههن هذه البراقع الصفاق ، وعلى أنوفهن هذه القصبات من الذهب الخالص أو من الفضة المذهبة .

عند هؤلاء الموظفين ، وعند هؤلاء التجار تشتد الحاجة إلى الخدم ، والحياة في بيوتهم لينة ناعمة ، فالتمتى لنفسك ولا ابنتيك بعض العمل في بعض هذه البيوت . قال ذلك شيخ العزبة ، ثم سمي لها أشخاصاً ووصف لها بيوتاً ووعداها بالمعونة . وانقضت أيام قليلة ولكنها ثقيلة ، كانت أمنا تلدور فيها بنفسها وبنا على البيوت تعرض نفسها ، وتعرضنا للخدمة ، كما تُعرض الإماء على السادة . ولكن هذه الأيام لم تنصل ، وما أسرع ما استقرت كل واحدة منا في بيت تعمل فيه بالنهار ، وتنام فيه الليل ، وولتني آخر الأسبوع ، فتقضيت ليلة سعيدة رضية في حجرتنا تلك القنطرة الخفيفة ، قد حملت كل منا ما أتبع لها حمله من الطعام ، فنجتمع إلى طعامنا ، ونحدث عن أهلنا وقريتنا ، ثم عن ساداتنا وسيداتنا ، حتى إذا تقدم الليل أغرقنا في نوم هادئ لذيد ، فإذا كان الصباح تفرقنا إلى حيث نعمل في بيوت التجار والموظفين .

وبيني من اختلاف الزى ، وأختلس نظرات إليها ، ثم أختلس نظرات إلى المرأة ، فلا أكاد أحس بينها وبينى فرقاً ولا اختلافاً ، لولا أنها كانت تتكلم لغة حلوة عذبة رقيقة هي لغة مصر ، وكنت أتكلم لغة فجة خشنة غليظة هي لغة أهل الريف من « بنى وركان » . وكنت أقلد في نفسى لغة خديجة فأحسها وأجيدها ، ولكنى حاولت غير مرة أن أجهر بهذا التقليد ، فردعت عن ذلك ردعاً عنيفاً . ثم حاولت غير مرة أن أجهر بهذا التقليد حين كنت ألقى أمى وأختى فكانتا تضحكان منى ضحكاً يخزبنى ويردنى إلى لغة الريف .

وأنفقت مع خديجة عاماً وعاماً لم ألقى فيها بأساً ولم أشك فيهما عناء ، وإنما عرفت فيهما الترف والنعم ، وتعلمت فيهما غير قليل مما يعرفه الأغنياء ، وبعد فيهما الأمد بعداً شديداً بينى وبين أمى التى كانت تعمل في بيت موظف من موظفى الدائرة السنية ، معتدل الحال متوسط العيش ، ولكنه أميل إلى حياة الريف ، وأحرص على تقاليد الفلاحين . وبعد فيهما الأمد بينى وبين أختى التى كانت تعمل في بيت مهندس الزى ، ذلك الشاب الرشيق الأنيق ذو الوجه الوسيم . ذلك الشاب الذى كان يعيش وحيداً في دار واسعة ، تحيط بها حديقة جميلة نظرة ، ولا يعيش معه فيها إلا خادم ريفي ، يحرس الدار ويعنى بالحديقة ، وإلا أختى تنظف الدار وتعنى بمتاع الشاب ، وكان الطعام يأتيه غزيراً موفوراً من مطعم المدينة ، فيصيب منه القليل ، ويترك أكثره لخادمية .

وكنت أرى أختى تشب مسرعة ، وبستدير جسمها استدارة حسنة ، وتظهر عليها آثار النعمة وآيات من جمال ، ولكنها ظلت كما أقبلت من

وكنت أحسن الثلاث حظاً وأيمن طالباً ، فقد قلدر لي أن أخدم في بيت مأمور المركز ، وكانت خدمتى غريبة أول الأمر ثقيلة على نفسى ، ولكنى لم ألبث أن أحبيتها ووجدت فيها لذة ومتاعاً . كلفت أن أصحب صبيه من بنات المأمور كانت تقاربنى في السن ، ولعلها كانت أكبر منى قليلاً .

كنت أرافقها في اللعب على ألا ألعب معها ، وأرافقها إلى الكتاب على ألا أتعلم معها ، وأرافقها حين يأتي المعلم ليلقى عليها الدرس قبل الغروب على ألا أتلقى الدرس معها .

كنت لها خادماً ألحظها من بعيد ، وأجيبها إلى ما تريد ، ولا أشاركها في شيء مما تعمل . ولكن « خديجة » كانت حلوة النفس ، رضية الخلق ، مشرقة الوجه دائماً ، منسمة الثغر دائماً ، وديعة النفس ، رقيقة الحاشية ، فلم يغل ما كان بينها وبينى من البعد ، وإنما أشركنى في لعبها ، واختصننى بأحاديثها وآثرتنى بأسرارها ، ولم تبخل عليّ حتى يبعض ما كانت تمنحها أمها من الحلوى ، أو من النقود لتشتري به الحلوى .

وما هي إلا أن تزول بيننا الكلفة ونصبح رفيقتين صديقتين . وسيدة البيت تذكر ذلك أول الأمر ، ولكنها تذعن له بعد حين ، وإذا أنا أختلف مع الصبية إلى الكتاب فأتعلم كما تتعلم ، وأتلقى مع الصبية درس المعلم فأستعيد كما تستعيد ، وإذا ثياب الصبية تخلع عليّ فيقرب ما بينها

رغبها المتبلى ، رغبة بلوية ، لا تقرأ ولا تكتب كما كنت أقرأ وأكتب .
ولا تحسن من أمور الرف شيئاً كما كنت أحسن منها أشياء .

وفي ذات يوم التقينا آخر النهار في حجرتنا تلك الحفيرة القفرة ،
وكنت قد أخذت أكره هذا اللقاء ، وأضيق بهذه الحجرة ، وأود لو
أعفيت من هذا الاختلاف إليها كل أسبوع ، ولو استطعت أن ألقى أختي
وأختي من حين إلى حين حيث كانتا تعملان . ولكن أمتنا كانت صارمة
حازمة ملحة في الصرامة والحزم ، لا تغير من عاداتها شيئاً ، فكنا نلتقي
آخر الأسبوع دائماً ، وكانتا تضحكان وتنعمان بهذا اللقاء ، وكنتم
أتكلف معهما الضحك وأتكلف معهما النعم .

فلما كان ذلك اليوم والتقينا مع المساء ، لم أر بشراً ولا ابتساماً ، ولم أر
بهجة ولا اغتباطاً ، وإنما أحسست صمتاً عميقاً مريباً ، ورأيت وجهين
كثيرين مظلمين ، وخيل إليّ أني أرى دموعاً تضطرب في عيني أمتنا
ولا تستطيع أن تنحدر . وهمت أن أسأل عما أرى ، فأعرضت أختي عني
إعراضاً ، وأشارت إليّ أي أن لا تسأل .

وقضينا وقتاً طويلاً ثقيلاً في هذا الممض الممض الذي لم أكن أفهمه
ولا أثبت له مصدراً .

ثم انقطع هذا الصمت فجأة بجملة واحدة لم أسمع بعدها شيئاً ، ولم
أصنع بعدها شيئاً حتى كان الصباح ، صدرت هذه الجملة عن أمتنا
فوقعت في قلبي موقع الصاعقة ، ولقيتها أختي بوجوم غريب ، رفعت
عينها إلى السماء ، ثم مضت فيما كانت فيه من صمت وحزن وإعراض .

قالت أمتنا : إذا كان الغد فسنرحل عن المدينة المشنومة !

لقد هممت حين سمعت هذه الجملة أن أنكر ، وأن أمتنع ، وأن
أناقش وأجادل ، ولكن أمتنا قالت هذه الجملة بصوت حزين بعيد عظم ،
فلم أستطع أن أقول شيئاً ولا أن أظهر شيئاً إلا الطاعة والإذعان .

وذكرت ما ألم بها من البؤس طول حياتها مع ذلك الزوج الماجن
الفاجر . ذكرت ما حرق فؤادها من الغيرة ، وما آذى نفسها من الذل ،
وما روع قلبها من الخوف .

ثم ذكرت ذلك الخطب الذي ألم بها فهدأها هدأً حين جاءها النبا بأن
زوجها قد صرّح ، وبأنه قد صرّح فيما لا يشرف به صريح .

ثم ذكرت هذه الآلام التي لا حد لها ، والتي غمرتها كما يغمر الماء
الغريق ، حين أنكرتها الأسرة إنكاراً ، وحين أخرجتها من القرية ثم نفّتها
مع ابنتها من الأرض .

ذكرت هذا فلم أستطع أن أنكر ولا أن أجادل ، ولم أزد على أن
أظهرت الطاعة والإذعان . والله يعلم أي ليلة قضيت ساهرة حائرة نائرة ،
لا أطمئن إلى شيء ولا أسكن إلى رأي . حتى إذا كان الصباح نهضت
أمتنا فأمرت أن نستعد للرحيل . قلت : أفلا نؤذن سادتنا بهذا الرحيل ؟
قالت في صوت هادئ حزين : إن كان يؤذيك فراقهم فأقيم فسنرحل
نحن . قلت بأكية : إن فراقهم ليؤذيني لكنني لن أستطيع أن أقيم ، وإنما
هبطت معكما هذه الأرض ، وقد كنت أحب أن أرى خديجة قبل الرحيل .
قالت : فإنك إن رأيتها لم تعودى إلينا ، أليس أبوها مأمور بالمرور ؟
أفمن تعلقت بك وكرهت فراقك يخل بينك وبين الرحيل ؟ قلت : إذن فلنرحل .
وما هي إلا ساعات حتى كانت أقدامنا قد تجاوزت بنا المدينة ،

وانتقلت بنا من قرية إلى قرية نحو الغرب ، حتى إذا بلغ منا الإعياء أقمنا
حيث كنا نستريح وننتظر الصباح .

٤

ونتهى إلى صوتك أيها الطائر العزيز ، وأنا أسبح في نوم غير عميق ،
وأرى من الأحلام صوراً قرية مألوفة تمثل لي خديجة وهي تلعب وتدعوني
إلى أن أشاركها في اللعب . وتمثل لي سيدة البيت وهي تأمر ونهى ، وتصعد
وتهبط ، وتذهب في تدبير بيتها وتجيء . وتمثل المأمور وقد أقبل مع
الظهر فاضطرب لمقدمه البيت ، ثم عاد إلى هلمه يوشك أن يكون السكون ،
ثم فرغ أهل البيت كلهم لهذا الرجل يعنون به ويتفكرون على خدمته ،
كأنهم لم يخلقوا إلا له ، ولم يوقفوا إلا عليه .

وتمثل لي أموراً كثيراً مما كنت أراه في ذلك العهد السعيد القريب .
ولكن صوت الطائر العزيز يبلغني فيخرجني من هذا النوم الحلو إلى بقعة
مؤلمة لا أكاد أشعر بها حتى أحس غلظ المضجع وخشونة الفراش . وأين
يقع هذا الوطاء الحشن من الصوف قد بسط على الأرض الغليظة بسطاً ،
من ذلك الفراش الوثير الموطأ الذي كان يلقي لي غير بعيد من سرير خديجة
في تلك الغرفة الجميلة المترفة من بيت المأمور !

لم أكد أحس خشونة هذا الوطاء ، وغلظ هذه الأرض ، حتى ذكرت
أنا فنام عند مضيفنا العمدة على سطح من سطوح الدار ، لا بسترنا سقف
وإنما تظللنا السماء ، وتكاد تغمرنا ظلمة الليل لولا هذا الشعاع الرقيق الذي

كان يترقق فيها من ضوء القمر ، وقد تقدم به الشهر غير قليل .
نعم ! وذكرت كيف انتهينا إلى هذه القرية مجهودات مكثودات آخر
النهار ، فجلس إلى شجرات من الثوت ساعة وبعض ساعة نستريح ،
لا تكاد واحدة منا تتحدث إلى صاحبتها بشيء . حتى إذا طال علينا
الصمت ، وثقت علينا الراحة ، وثقل علينا التفكير ، قالت أمنا :
ما أظن أننا نستطيع أن نفق الليل جالسات إلى هذا الشجر ، وما أرى أننا
نستطيع أن نجد من يؤوينا أو يضيفنا في هذه القرية التي لا نعرف من
أهلها أحداً ولا يعرفنا من أهلها أحد إلا العمدة ، فيجب أن يكون بيته
مفتوحاً لكل غريب طارق ليل أو نهار . ثم نهضت متثاقلة ونهضنا معها ،
ومضت متباطئة ومضينا معها ، حتى انتهت إلى دار العمدة : لم تسأل عنها
ولم تستدل عليها ، وإنما مضت إليها كأنما كانت تعرفها من قبل . هنالك
رأينا جماعة من الناس قد جلسوا أمام الدار على مصطبة عظيمة : وتوسطهم
رجل شيخ لا تكاد العين تقع عليه حتى تثق النفس بأنه عمدة القرية . فلما
بلغنا مجلس القوم ولحظتنا أبصارهم ، تقدمت أمنا إلى الشيخ الوقور وقالت
في صوت هادئ مترن : غريبات قد طرقت القرية في هذه الساعة المتأخرة
من النهار فأوينا يا عمدة حتى يسفر الصبح . قال الرجل : على الرحب
والسعة . ثم دعا فأقبل إليه غلام من داخل الدار ، قال : خذ هؤلاء النسوة
إلى دار الضيافة ومرّ يا كرام متواهن .

ومضى الغلام ونحن نتبعه حتى انتهى بنا إلى دار الضيافة : فإذا بنا
متواضع قد انبسط أمامه فناء عظيم ، فأدخلنا إلى بعض حجراته وقيل لنا
أقمنا هنا حتى يأتيكن الطعام .
وما هي إلا ساعة أو بعض ساعة حتى اتصلنا بمن في الدار من أضياف

ونخلهم ، قد اختلط بعضهن ببعض فكأنهن جميعاً أصحاب البيت ، ثم اتصلت الأحاديث واختلطنا بمن وجدنا ، فأهيننا وكأننا منهن .

وكان العشاء الغليظ ، وكان للسمر المضطرب المختلط : ثم كان الضيق إلى المضاجع ، فثنا من أثر الهواء الطلق فاتخذ مضجعه على سطح الدار أو في فنائها ، ومنا من أشفق من ذلك فأوى إلى الغرفات والحجرات . وقد رغبت « هنادي » في السطح وشاركها في هذه الرغبة ومضينا معاً نتظر النوم ، وكنت أحدث نفسي بأن هذه الخلوة إلى أخنى قد تكشف لي عن بعض ما يخفى على من أمر .

ولكني لم أكد أجلس إليها أحاول أن أصل الحديث بينها وبينى حتى لقيتني بذلك الإعراض المثلوج الذي لقيتني به أمس ، ثم أشاحت بوجهها ومضت في صمتها ، وأقمت أنا إلى جانبها حائرة لا أدري كيف أقول .

ثم استلقيت وأرسلت نفسي في فضاء هذا الليل العريض تلتمس ما يلهمها عن هذه المموم الغامضة المستغلة التي لم أكن أعرف منها إلا ثقلها . ولكن هذه النفس لم تكد تمضي في ظلمة الليل حتى أدركها موج من هذا النوم اليسير فأخذت تسبح فيه ، ولبثت كذلك حتى أخرجها منه هذا الطائر العزيز .

ذكرت هذا كله حين استيقظت ، ومرت بي خواطره مسرعة في حين كنت أحاول أن أثبت أين أنا وكيف انتهيت إلى حيث أنا ، وفي حين كنت أفتح عيني وأديرهما من حولي كأنما أريد أن أستكمل شخصي حين أثبت حقيقة المكان الذي أنا فيه ، وفي حين كنت أمد ذراعي عن يمين وشمال ، وأمد ساقى كأنما أريد أن أتمدد بجسمي ما أفقده هذا النوم اليسير من نشاط ، وكأنما كنت أحبو عنه ما تركت فيه هذه الأرض الغليظة من ألم .

ثم أستكمل شعوري وأجد نفسي كما كنت قبل أن يغمري النوم ، وأحس كأن شخصاً قائماً غير بعيد مني ، فأثبت هذا الشخص فإذا هي أخنى قائمة جامدة لا تكاد تأتي حركة . ولا تكاد نحس شيئاً ، وكأنها لا تكاد تفكر في شيء .

إنما هو شخص مائل ذاهل قد قام في شيء من الجمود المؤلم ، ورفع رأسه إلى السماء كأنه كان ينتظر منها شيئاً ، وكأنما أبطأ عليه ما كان ينتظر منها فجمد في مكانه لا يستطيع منه انتقالاً .

وأتأت أيها الطائر العزيز تلتقي في الليل العريض المظلم نداءك البعيد العذب ، فيصل إلى نفسي فيحييها ، ويوقف فيها الذكرى ويبعث فيها الأمل ويشيع النشاط ، وأخنى مائلة ذاهلة كأن صوتك لا يبلغها ولا ينتهي إليها . ومع ذلك فما عهدتها صماء ، ولا عهدتها تحسن الحزن أو تجيد الاكتئاب ، إنما أعرفها فرحة مرحة ، تحب الضحك ولا تحتاج إلى أن تدفع إليه . وإنما تحتاج إلى أن تدفع عنه . أين هي ؟ ما بالها جامدة هاملة لا تسمع ولا تحس ؟ لعلها قد أرسلت نفسها كما أرسلت نفسي تسبح في هذا الليل العريض فأبعدت نفسها في المسعى وتركت جسمها مائلاً بلا روح ؟

نهضت من مكاني في هدوء ، وسعيت إليها في أناة ، حتى إذا بلغها سميت كنفها مساً رقيقاً ، فإذا رعشة عنيفة تجري مسرعة في جسمها كأنها رعشة الكهرباء ، وإذا هي تجفل كالخائفة ، ثم تأمن وتسكن حين تسمع صوتي وأنا أقول لها : لا تراعي ، فأنا أختك آمنة ، ما فوقك الآن على هذا النحو مائلة ذاهبة النفس ، كأنك المصنم ؟ ماذا تنتظرين من

الليل ؟ وماذا تبغين من السماء ؟ قالت وقد هوت إلى الأرض كأنها البناء المهلم وصوتها مضطرب ممزق ، يتمزق له قلبي كلما ذكرته : لا أنتظر شيئاً ولا أبغى شيئاً . . .

ثم عادت الرعدة السريعة فهزت جسمها هزاً ، ثم انهمرت دموعها انهاراً ، ثم احتبس صوتها فإذا هي تضطرب اضطراباً عنيفاً ، وتسفع دمعاً غزيراً ، وترسل أنفاساً عنيفة متقطعة ، وأنا أجثو إلى جانبها وأضمتها إلى وأقبلها ، وأحاول أن أرد إليها الهلوه والأمن وسكون النفس ما وسعني ذلك ، حتى إذا مضى وقت غير قصير سكن جسمها بعد اضطراب ، وانطلقت أنفاسها بعد احتباس ، ومضت دموعها تهمر ، وأوت إلى ذراعي كأنهما الطفل قد استسلم إلى أمه الرعوم ، وأطمأن رأسها إلى كتفي ، وقضت كذلك لحظة ما نيت ولن أنسى عنوبتها . وما أرى إلا أنها أحست هذه العنوبة ! فقد ثابت إليها نفسها وراجعها رشدها ، وليث حيث كانت حتى بعد أن سكنت دموعها ، كأنما أعجبها مكانها مني ، وكأنما وجدت شيئاً طالما كانت تنوي إليه فلا تجده ولا تنظر به . ثم سمعتها تقول بصوت خافت بعيد : لقد كنت أحب أن أكون بهذا المكان من أي لامنك أنت أيها الأخت الصغيرة ؛ فإنك لم تخلق لتدلي أختك وتمنحها مثل هذا العطف والحنان . . .

بالك من ليل مظلم عريض تضطرب فيه هذه الأضواء الضئيلة البعيدة التي تضيء ، ويبسط عليه هذا السكون الخفيف ظلالاً لا حد لها ، ثم يتدفع فيه من حين إلى حين صوت هذا الطائر العزيز كأنه سهم مضى بنطلي في بحر من الظلمات !

كل شيء هادئ مطمئن من حولنا حتى نفس هذه الفتاة التي

كانت نائرة منذ لحظة فقد اطمأنت وسكنت ، وانتهت إلى حال تشبه النوم . وإني لأخذ نفسي بالهلوه وأكرهها على الاطمئنان ، وألزم جسمي السكون في هذا الوضع الذي هو عليه ليبنى هذا الرأس البائس المحزون مترجماً إلى هذه الكتف الصغيرة الحنون .

ولكن الفتاة ترفع رأسها وتستوى جالسة ، ثم تبسط ذراعها فتطوق بها عنق ثم تضمتني إليها ، ثم تقبلني ، ثم تقول : إياك أن تفعل ما فعلت أو تُحدثني كما أحدثت أو تدفعني إلى مثل ما دُفعت إليه . إنك إن تفعل ترى نفسك في مثل ما تربطني فيه الآن من الجزع والهلوع ، ومن اليأس حتى من رحمة الله ، ومن القنوط حتى من روح الله الذي لا يفتن منه إلا الكافرون .

قلت : وماذا فعلت إذن ؟ وما هذا الشر الذي دُفعت إليه ؟ وما هذا اليأس الذي تغرقين فيه ؟ وما هذا الهم الثقيل الذي صُيب علينا صباً ولم نكن نستظيره ولا نتوقع له مقدماً ؟ قالت وهي تقبلني : لست أدري أ أحدثك بذلك أم أكتمك إياه ؛ إني لأعتدي على سنك أن تحدثت إليك ، وإني لأعرضك لمثل ما أنا فيه إن كتمتك الحديث .

قلت : فإن صمتك لن يغني الآن شيئاً ؛ فقد عرفت أن هماً ثقيلاً ألم بنا ، وأن حرناً ممضاً يمزق قلبك وقلب أمنا ، وأن يأساً مهلكاً قد استأثر بنفسك استئثاراً ، وما أنا بمقلعة عن السؤال والبحث والتفكير حتى أعلم علم هذا كله . وإني لحققاء إن قبلت أن أنزع من ذلك العيش الناعم السعيد الذي كنت أستمع به دون أن أعلم لماذا أنزع منه نزعاً ، فحدثيني حديثك ، فمن يدري لعل فيه لي عظة ولك عزاء .

وارتفع الضحي من الغد فإذا ضوءه المتدفق يغمر فتاتين معتفتين قد أغرقتا في نوم عميق ، لا يوقظهما منه حرّ الشمس المحرقة ، ولا مس الأرض الغليظة ، ولا اضطراب اللواجن من حولها وهن يزدحمن على ما ينثر لهن من حب ، ويختصمن فيما يُصبّ لهن في الصحاف من ماء ، ويخفقن بأجنحتهن في الهواء مقبلات مدبرات ، واقعات طائرات ، ينادين ويتناجين ويتناغين ، قد ملأهن إشراق الصبح مرحاً ، فلأن الجوحياة ونشاطاً وجباً . وكان هذا كله كأن يدعوني دعاءً ملحاً من أعماق النوم الذي كنت مغرقة فيه ، ويدنيني قليلاً قليلاً من اليقظة ، وإذا أنا أتلقى الحياة دون أن أتمثل الحياة ، وأستقبل النشاط دون أن أشعر بالنشاط ، ثم أحس كأن شيئاً خفيفاً رشيقاً قد مسّ كتي مساً يسيراً فأنته ، ولا أكاد أفصح عني وأتي بعض الحركة حتى أرى حمامة مذعورة قد ارتفعت غير مسرفة في الارتفاع ، ولم تكد تطير حتى وقعت في رشاقة وظرف غير بعيد ، فأستوى جالسةً وأتلى نظرة إلى أختي وقد ثاب إلى حديثنا كله مرة واحدة فلا قلبي إشفافاً وجباً وحزناً . وتقع عيني عليها وقد استراح جسمها المتعب ، واستقر قلبها المضطرب ، وهذأت نفسها الثائرة ، وذادت الراحة عن وجهها ذلك الغشاء المظلم الكتيب ، فبدت نصرته حلوة مشرقة شائقة كأنها نضرة الزهر وقد تفتح لضوء الصبح وقطر الندى ، وإذا في هذا الوجه الهادئ النضر جمالٌ للعين ، وفتنة للعقل ، ومتعة للقلب ، وإذا أنا أنظر إليه فلا أكاد أحول عني عنه ، مستريحةً "معجبة" مكبرة ، ولكني أسمع من ورائي

صوتاً خافتاً يملؤه الحنان والحزن ويقول كأنه يتحدث إلى : انظري . . . انظري . . . وأطيلي النظر ! ألسنت تريتها حسناء رائعة الحسن ؟

فألتفت وإذا أمنا جالسة تنظر إلى الوجه الذي أنظر إليه ، وما أشك في أن نفسها كانت تستعرض خواطر كالتى تختلف على نفسي ، وفي أن قلبها كان يتأثر بعواطف كتلك التى كانت تملاً قلبي ، فأسألها : ما جلوسك هنا في هذه الشمس المحرقة ؟ فتجيب : لقد كنت أملاً عيني بمنظر كما الجميل . . . ثم تنهض موليةً في شيء من الإسراع وهي تغالب شجى يريد أن ينفجر ، وتحرص هي على أن يظل دفيناً .

وأقيم أنا في مكاني ذاهلةً أو كالذاهلة ، أنظر إلى أختي التى لم تستيقظ بعد ، وإلى أمي التى تسرع مولية تريد أن تهبط أسفل الدار ، وأفكر في هذه الفتاة البائسة وفي هذه المرأة البائسة ، وأسأل نفسي : أيهما أحق بالعطف وأجدى بالرثاء ؟ وأسأل نفسي : أيهما أحق منى بالمعونة والنصر وبالتعزية والتسلية ؟ فكلتاها في حاجة إلى العون ، وكلتاها في حاجة إلى العزاء

هذه الفتاة البريئة لم تعرف بؤس النفس قبل الآن ، وهي تستقبل الشقاء الآن مظلماً قائماً ثقيلاً ملحاً ، لم تدعه ولم تسع إليه ، وإنما أكرهت عليه إكراهاً وأغريت به إغراءً ، ثم دُفعت إليه دفعاً ، وهي الآن غريق مشرقة على الموت ، تريد أن تقاوم وتجاهد الموج ما وسعها الجهاد لا تجد ما تعتمد عليه أو تتعلق به .

ولأنها لى ذلك إذ ساق القدر إليها من أختها الصغيرة "تمامة" تستطيع أن تستمسك بها وتستبق فضلاً من أمل ، وحظاً من رجاء .

وهذه المرأة التي لم تبلغ الشيخوخة بعد، ولكنها قد فرضت على نفسها حياة الشيوخ: حرمان متصل، وانصراف عن كل ما في الحياة من لذة، وإعراض عن كل ما في الحياة من متاع، واكتفاء بما يقيم الأود ولا يبدل من الموت، ونظر متصل إلى هذا الماضي القريب الذي يملؤه الحزن ويفعمه الأسى، وتضطرم فيه هذه النيران التي تحرق قلب المرأة حين تحب، فلا يسعفها الحب، ولا تلتقي ممن تحب إلا خيانة ونخداعاً وغدراً. وإنها لفي ذلك محزنة لأمتها، يائسة من غدها، معرضة عن يومها، وإذا الحياة تنكشف لها عن خطب جديد ثقيل، ليس أقل نكراً ولا أهون أمراً من تلك الخطوب التي بَلَّتْها في حياتها الماضية، فهي تنظر وراءها فلا ترى إلا ظلمة، وتنظر أمامها فلا ترى إلا ظلمة، وتنظر عن يمين وشمال فلا تجد عوناً ولا نصيراً.

لقد أنكرتها الأسرة وجفأها الأهل ونفها القرية، وأصبحت وحيدة تعول ابنتين بائستين، وإذا هي تُنكب في إحداها لأمر لا تعلمه وقضاء لم تكن تنتظره. كلتاها بائسة، وكلتاها شقية، وكلتاها خليقة أن تجد من الأخرى ما تحتاج إليه في هذا كله. ولكن هذه النكبة الملمة، والكارثة الملمحة قد باعدت بينهما: فالأم محقة على ابنتها: والفتاة نافرة من أمها، لا يتصل بينهما حديث ولا تثبت عين إحداها في عين الأخرى، إنما تتفاهمان بالإشارة أو الجمجمة، فإذا التقت أعينهما فما أسرع الإطراق إلى رأسيهما! ثم ما أسرع ما تدعو حاجة مرتجلة منتحلة إحداها إلى أن تولى مديرة لثنائى عن صاحبها فلا يكون بينهما نظر ولا حديث.

هل أستطيع أن أرد ما بينهما إلى طبيعة الصلة بين الأم البائسة

والابنة المحزونة؟ بل هل أستطيع أن أعيد الأمر بيننا إلى شيء مما كان عليه قبل هذه الكارثة من هذه المودة السهلة التي لا تكلف فيها ولا تصنع ولا رباء؟ بل هل أستطيع قبل كل شيء أن أعلم أين نحن وإلى أين نخشى، وماذا تريد بنا أمتنا هذه التي تأمر ونهى في طجة حازمة صارمة وإيجاز مقتصد لا يقبل حواراً ولا جدالاً؟ ذلك أجدر أن أفكر فيه، وأخرى أن أسعى إليه. فلا تبعن أذى إذن ولا تلتطفن لها، ولأسألها في أناة ومودة ورفق حتى أعلم علمها، ثم أنظر بعد ذلك فيما آتى، أو فيما يمكن أن نأتي من الأمر.

كل هذه المعاني تضطرب في نفسي، وعيني لا تكاد تفارق هذا الوجه الهادي الذي يدل هدوده على أن أختي ما زالت في تلك الأعماق البعيدة التي كنت فيها منذ حين، لم يبلغها ضوء الشمس وحرها، ولم يؤذها من الأرض وغلظتها، ولم يصل إليها اضطراب الدواجن وما تملأ به الجو من نشاط ومرح وصياح.

فأنهض مثاقلة مترفة حتى أهبط فناء الدار ألتبس أمتاً، وما كان أيسر الوصول إليها! فقد اعتزلت غير بعيد من السلم وجلست منحنية نعبث في الأرض بأصابعها عبثاً يدل على شيء من الذهول، كأنما كانت تناجي همماً ثقيلًا أو تتبع خاطراً بعيداً؛ حتى إذا بلغها مست رأسها بيدي وسألها مداعبة: ما هذه اللعبة التي تلعبين؟ وهلا دعوتني لأكون شريكك في اللعب؟! فإن مثل هذه اللعبة لا تستقيم إذا انفردت بها لاعبة واحدة...

قالت وقد رفعت إلى رأساً حزيناً: أترينني ألعب يا ابنتي؟ قلت: فما عسى أن تفعل بهذا التراب الذي تذهب فيه أصابعك وتجيء؟ ثم أنهضتها فلم تمنع علي، ومضيت بها إلى ناحية من الفناء

لا يكثر فيها اضطراب الأضياف ، ونظرت إليها فإذا هي تنقاد إلى منسلمة ، وإذا حزنها العميق وحنانها القوي قد فاضا على وجهها الشاحب فألقيا عليه مثل وداعة الأطفال .

هنالك أحسست من نفسي قوة ، وشعرت كأنى أنا الأم « زهرة » وكأنها هي الفتاة « آمنة » ، فاتخذت صوتها وطبعها وألقيت عليها في غير تكلف هذه الأسئلة : ماذا تريدان ؟ وماذا تصنعين ؟ وأين تذهبين بنا ؟ قالت وقد انحدرت دموعها : لا أصنع شيئاً ، ولا أدرى أين أذهب بكما ، وإنها أريد أن أنأى بكما عن هذه المدينة الموبوءة . قلت : ولكن إلى أين ؟ قالت : سرى . قلت : ومنى نرى ؟ قالت : لا أدرى . قلت : فقد ينبغي أن تدرى ، فما يحسن بثلاث من النساء أن يهمن في الريف على وجوههن ، تلفظهن قرية وتلقاهن قرية أخرى ، يؤوين هذا العمدة وقد يردهن ذاك . قالت : فماذا تشيرين ؟ قلت : أمّا إذ كرهت المدينة وباعدت بيتنا وبين تلك الدور التي كنا نحيا فيها حياة أمن وهدوء . . .

وهنا أخذتها رعدة قوية وقالت في غضب وحدة : أى أمن وأى هدوء ! إنك إذن لم تعلمي . قلت : بل علمت . قالت : وقد اجترأت البائسة على أن تلتى إليك هذا الحديث ! ألم يكفها ما اقترفت من الإثم ، وما انغمست فيه من الدنس حتى أرادت أن تكوني لها شريكة ! قلت في رفق : دعها وما هي فيه الآن وعودى بنا إلى ما كنا فيه :

أمّا إذ كرهت المدينة وباعدت بيتنا وبين ما كنا نستعين به على الحياة من عمل ، فإني أرى أن نلتمس العمل في قرية من هذه القرى عند غنى من هؤلاء الأغنياء . قالت : لقد فكرت في هذا ، ولكنى أرى

أن ليس إليه من سبيل ! فإن المرأة لا تستطيع أن تعيش ولا أن تأمن ، ولا أن تستقيم أمورها إذا لم يحمها أب أو أخ أو زوج . قلت : فليس لنا أب ولا أخ ولا زوج ! قالت : بل لنا من يحمينا ، وقربتنا التي تقينا عنها أحق بنا ونحن أجدر أن نعود إليها . ولئن بلغناها ليعلمن الذين جفونا ونفونا أن من العار أن تنى الأسر نساءها وكرامتها ! فالمرأة عورة يجب أن تستر ، وحرمة يجب أن ترعى ، وعرض يجب أن يصاب .

قلت : فأنت تريدان إذن أن تعودى إلى تلك الحياة البائسة النعسة التي كنت تحيينها بين قوم لا ينظرون إليك إلا شزراً ، ولا يعطفون عليك إلا كرهاً ، ولا يتحدثون عنك إلا في سخرية ورجمة شر من السخرية ؟ ! قالت : نعم ! فكل هذا أهون مما لقينا ، وكل هذا أهون مما يمكن أن نلقى إن مضينا في هذه الحياة الهائمة التي لم نخلق لها ولم تخلق لنا . ولقد انقطعت تلك الأسباب التي كانت تدعو إلى جفاء الأسرة وإعراض ذوي القرى وسخر الأعداء ورتاء الأصدقاء . لقد انقطعت تلك الأسباب وبعد بها العهد . ولئن بلغنا قربتنا ليزكرن الناس بعض أمرنا حيناً من الدهر ، ثم لا يلبثون أن ينسوه وأن ينسوننا ، ولا نلبث نحن أن نغمس في حياتنا الأولى ونعيش بين أهلنا بائسات ، ولكن آمنا . . .

قلت : وتريدان أن نبلغ هذه القرية ساعيات على أقدامنا ، نتقل من ريف إلى ريف ، ونستضيف هذا يوماً وذاك ليلة ، وقد أعجلتنا بالرحيل عن كل أمرنا ، فتركنا متاعنا وما اجتمع لنا عند من كنا نعمل عندهم ! قالت : سترين ، فلن بنا لكما جهد ، ولن يحس حياء كما أذى ، سنقيم هنا حتى يأتي من يحملنا إلى قربتنا ويبلغنا مأمننا بين الأهل والأصدقاء .
دعاء الكروان -

قلت : وكيف يستقيم لنا هذا ؟ قالت : علمت منذ أصبحت اليوم في القرية سوق يجتمع فيه الناس من أطراف الريف ، فلا أسد بين الناس والبائعات ، فلن أعدم بينهم رجلاً أو امرأة من أهل قريتنا من أهل قرية مجاورة ، فلا حملته رسالة إلى أهلنا ، ولن يتم الأسبوع ح يكون أخي هنا قد أقبل يحملنا إلى حيث ينبغي أن نعيش .

وهمت أن أمضي معها في الحديث ، ولكن حركة عنيفة قطعت علينا ما كنا فيه . فهؤلاء نسوة قد أقبلن يحملن الجفان والأسفاط ويدنن إلى الطعام .

ويسمع الأضياف دعاءهن ، ويرى الأضياف مقدمهن فيسرعن للدعاء ويسرعن إلى الطعام ، ولا بدّ من أن نستجيب كما استجبنا ومن أن نسرع كما أسرعن ، لا بدّ من أن أصعد فأنه أخي هذه لا تريد أن تفيق من نيمها الطويل بعد أن كانت لا تريد أن تخرج أرقها الطويل .

فأصعد ، ولكني لا أكاد أبلغ آخر السلم حتى أراها قائمة ما حيث رأيتها من الليل حين أبغطني طائر الغزير .

٦

وأقبل من في الدار من النساء ومن انضم إليهن من نساء البائعات على الطعام مسرعات يتراحن بالمناكب ، ويندفعن بالأيدي ويتزاجرن باللفظ واللحن ، ويرتفع في أثناء ذلك صراخ لصاحب الدار

يوثق الله حزامه ، ويعلى مقامه ، ويصرف عنه الداء ، وينصره على الأعداء . ونحن نسعى وجلات خجلات ، يدفعنا الجوع والأدب ، ويمسكنا الحياء والاحتشام ، حتى إذا استدارت الجماعة حول الجفان قلّ الكلام ، وفرت الأجسام ، واضطربت الأيدي وعملت الأفواه .

وأنا أرى هذا كله فيؤذني منظره ويقع من نفسي موقعا أليماً . ما أبعد ما بين هذه الأيدي الغليظة الحشنة قد تقلص جلدها وتقبض ، وهي تغوص بما فيها من الحبز غوصاً في القصاع فتصيب منها ما تستطيع ، وما بين تلك الأيدي الرقيقة الرفيعة الناعمة المترفة التي لم تكن تمتد إلى الأطباق إلا هيئة ، والتي لم تكن تمسّ ما في الأطباق إلا بهذه الأدوات التي يعرفها أهل المدن خاصة بل يعرفها المترفون من أهل المدن خاصة !

ما أبعد ما بين هذه الأفواه الفاخرة التي يلقي فيها الطعام إلقاءً على عجل فلا يكاد يستقر فيها حتى تروده الحلق ! وكأن الطبيعة لم تودع هذه الأفواه حساً تجد به لذة ما تأكل وما تشرب ، وإنما اتخذتها طريقاً إلى الحلق ثم إلى الأجواف ، وما بين تلك الأفواه الصغيرة الضعيفة التي لم تكن تفتح إلا بمقدار ، والتي لا تلهم ولا تلتقم ولا تنتهي بما فيها إلى حلق تردّد ، وإنما تطيل المضغ وتستمتع بما يمسه من الألوان ، ثم تنتهي به على مهل إلى حلق تسيغه في أناة ورفق ، كأنما الأكل فن من الفنون لا بدّ فيه من الرويّة واصطناع المهل والأناة !

ما أبعد ما بين هذه الجماعة التي حشرنا فيها حشراً في فناء هذه الدار ، وما بين تلك الأسرة التي كنت أعمل عندها وأجد في خدمتها حين تجلس إلى المائدة لذة ومتاعاً يعدلان بل بريان على ما كنت أجد من اللذة والمتاع حين

أجلس إلى طعامي مع رفاقي من الخدم بعد أن يتفرق سادتنا عن مائدتهم
أين أجد القدرة على أن أدفع يدي مع هذه الأيدي وأحرك في
هذه الأفواه ! إنما أنا جالسة بين هؤلاء النساء أنظر إليهن ضيقة بين
وأتلهى عن الجوع بهذا الخبز الرقيق المستدير الواسع أحطمه بين يدي
وأصيب منه قليلاً بين حين وحين . وأمتنا تصيب من الطعام في قصور
واعتدال ، قد حال الحزن والحياء بينها وبين إرضاء حاجتها إلى الغذاء . وأخيراً
واجبة ساهمة كأنها في أرض غير هذه الأرض ، وفي حياة غير هذه الحياة
ثم تفرغ الجفان ويتفرق النساء جماعات ، ونهم نحن أن نتنعم
ناحية ، ولكننا لا نكاد نبلغ من ذلك ما نريد حتى يدركنا نسوة ثلاث
يجلسن حيث نجلس ويأبين إلا أن يأخذن معنا في الحديث . تقف
إحداهن وكانت امرأة تختصم على وجهها أواخر الشبايب وأوائل الشيخوخة
ويحتفظ صوتها كما تحتفظ حركاتها بنشاط فيه عنوبة مغرية وميل
الفكاهة ظاهر : ما رأيت كالיום نسوة يستغنين بالأعين والآذان
الأيدي والأفواه وعن الألسنة والحلوق والأجواف .

ها أنتن أولاء بيننا منذ أمس ، وما سمعنا لكن صوتاً ولا عرفنا
أمركن شيئاً . وها أنتن أولاء تستبدن معنا حول الطعام فلا تكدن تملأ
إليه يداً ولا تكدن تصبن منه حظاً ، كأنما يغذيكن النظر إلى الطاعمين
وهن يلتصقن ويلتصقن ويترددن ، وكأنما يرضى حاجتكن إلى الحديث
الاستماع للمتحدثات ! ثم أرسلت ضحكة سمعها من غير شك أبعد
في الدار مكاناً ، وسمعها من غير شك من كان خارج الدار ، وانتهت
معهما في الجو استخفاف واستهتار ودعابة ودعاء إلى المحبون . حتى

فرغت من ضحككنها وجرت الهواة إلى جوفها جرّاً هو أشبه بالشهيق المثير
قالت : أهذا شأنكن بالقياس إلى كل ما تحتاج إليه النساء من لذة وراحة
ورضاً ؟ إنكن إذن لبائسات .

قالت هذا ثم التفتت إلى أمتنا فألقت عليها نظرة قوية تريد أن تثيرها
إلى الحديث وتكرهها على الجواب ، ولكن أمتنا لم تنطق بحرف ولم تعرف
كيف تلقى هذا السيل المنهمر من اللفظ ، وإنما انعقد لسانها انعقاداً ،
وظهر على وجهها اضطراب شديد ، ولم تثبت عيناها لعيني هذه المرأة
الحريرة اللعوب فغضنهما ، وأطرقت برأسها إلى الأرض كأنها الطفل الصغير
يلج عليه الكبار في السؤال عن بعض أمره فيمنعه الحياء من أن يجيب .

هنالك التفتت هذه المرأة إلى وقالت : هذه أملك صامته لا تقول ،
وهذه أختك واجبة لا أمل في أن تفهم ولا في أن تجيب ، فتكلمي أنت
فإني أرى في عينيك جرأة وعلى وجهك شيئاً يشبه القحة ، وما أظن أن في
عينيك ملحاً . . . ! قولي من أنتن ومن أين تقبلن ؟ وما خطبك ؟
وما إغراضكن عن الطعام ؟ وما إثاركن للصمت ؟ قلت ولم أستطع أن أدفع
الضحك عن نفسي أمام هذا الهجوم المفاجيء الغريب ، وأمام إغراق
هاتين المرأتين الآخرين في الضحك ، وإغراق أمتنا في الصمت ، وإغراق
أختي في الوجوم : وأنت من تكونين ومن أين تقبلين ؟ وما أنت وسؤالك
إيانا وإلحاقك علينا ؟

قالت مسرعة تتحدث إلى صاحبتها : ألم أقل لكما إنها « قارحة »
ليس في عينها ملح ، وإنما هي التي تستمع لي وترد علي ! ثم التفتت
إلي وقالت : تحقيق . . . أسمعين ؟ تحقيق . . . أنا مكلفة أن أخضعك
له ، ستعرفين من أنا ، وستعلمين أنني تعودت التحقيق مع النساء

ومع الرجال أحياناً والإلحاح في السؤال على أولئك وهؤلاء . . . ثم أرسلت ضحكها ورجعت شبيهاً ، وسألتني ملحمة : من نكون ومن أين نقبل ؟ ! وما زالت هذه المرأة تداعبنا وتلاعبنا عنيفة حيناً ولينة حيناً آخر ، جادة حيناً وهازلة في أكثر الأحيان ، وصاحبتها تعيناها على بعض ما تريد من ذلك ، حتى أنسنا إليهن وتحدثنا معهن شطراً من الضحى ، وعرفت من أمرهن ما رغبت في ألا تنقطع الصلة بيني وبينهن ما أقمتنا في هذه الدار ، وكن جميعاً من أهل المدينة التي أقبلنا منها ، قد بلغن هذه القرية معاً قبل أن نبلغها نحن بساعات ، أقبلن راكبات وأقبلن نحن سعيّاً على أقدامنا . فأما هذه المحققة التي كانت تسأل وتلح في السؤال ، وتمازح وتغلو في المزاح ، فكانت امرأة عظيمة الخطر ، عرفت من أمرها فيما بعد ما كنت أجهل ، وتبينت أن اسمها كان شائعاً دائماً على جميع الألسنة وفي جميع الأنحاء لا في المدينة وحدها بل في كثير مما يحيط بها من القرى والعزب والضيايع .

كان اسمها « زنوبة » وكان تاريخها حافلاً بالخطوب والأحداث ، كان شبابها مغامرة كله وقتة لنفسها وللكثير من الناس . كانت تجيد الرقص وتفتن به شباب المدينة ، وتفتن هؤلاء الشباب الذين كانوا يفتنون على المدينة في فصل الشتاء ليشتغلوا في معمل السكر . وكانت تفيد من فصل الشتاء لهما كثيراً ومالاً كثيراً وصوتاً بعيداً . حتى إذا تولى عنها الشباب شيئاً وأخذت تدنو من الكهولة قليلاً قليلاً آثرت ظاهراً من القصد ، وتكلفت شيئاً من الاعتدال ، وأسدت على مجونها ودعائها ستاراً رقيقاً ، تستطيع بعض الأبصار أن تنفذ إلى ما وراءه فتدل أصحابها على ما يبتغون .

ثم اتصلت بالشرطة ورؤسائها في المدينة . وكانت وسيلتها إلى هذا اتصال معرفتها للشبان ، ومخالطتها للرجال ، وانسلاطها إلى بعض الدور سمعها لكثير مما يلقي من الحديث ، وعلمها بكثير مما يقع من الحوادث لم من الخطوب . فكانت عيناً من عيون الشرطة تنفذ إلى كثير جداً مما تنفذ إليه عيون الرجال ، وكانت تفيد من ذلك مالا ، وتكسب من ذلك نفعاً ، فكان الناس يخافونها ، ويتلطفون لها . وكانت الشرطة تستعين بها في رعاية خاصة خصبة حين يصرع صريع بالليل ، ويبحث المأمور وأعوانه القاتل فلا يظفرون به ، هنالك كانت تنفل إليهم ما تسمع من حديث في بعض أندية الشباب وفي داخل كثير من البيوت ، وحين تدي اللصوص على دار من الدور ثم تعمى آثارهم وأخبارهم على الشرطة . كانت أتق ما تكون للشرطة وأقدر ما تكون على إعاتها حين يهاجم الماعون أو الكوليرا أو أي وباء من هذه الأوبئة أهل المدينة وما حولها من القرى ، وحين تريد الحكومة أن تستكشف المرضى وتعزلهم في تلك الخيام كان يكرهها الناس أشد الكره ويفرون منها أكثر مما يفرون من الموت . هنالك كنت ترى « زنوبة » حركة متصلة كأنها النحلة ، لا تستقر نهداً ولا تعرف السكون والاطمئنان . هي في كل شارع وفي كل حارة في كل زقاق وفي كل بيت ، ونقالة الصحة من ورائها تجوب الشوارع زقة والحارات وتختطف المرضى من بيوتهم اختطافاً . وفي تلك الأوقات ان الناس يغيضون زنوبة أشد الغيظ ، ولكنهم كانوا يضطربون إلى يسمون لها ويلعنون الوباء لأنه لم يمسسها ولم يحملها على النقالة ولم يضطرها إلى هذه الخيم التي تضطر إليها الناس .

وقد جمعت زنوبة من كل هذه الحرف مقداراً لا بأس به من المال . فلما تقدمت بها السن بعض الشيء أخذت تستثمر ما جمعت وتنميهِ . وقد سلكت إلى ذلك طريقين : فهي من ناحية مرايية ، تقرض الجنيه بثلاث أمثاله منجمة على العام ، وتشتري من الأسواق في المدينة والقرى ما تستطيع شراؤه من الحب رخيصاً ثم تبعد بين الفقراء والباثسين ، تشتط عليهم في الربيع لأنها تصبر عليهم في اقتضاء الثمن . وقد زهد الشباب فيها وقل نشاطها إلى اللهو الجريء ، فبحثت ثم بحثت ثم اختارت لنفسها رجلاً من الحفراء غريباً عن المدينة وقد إليها منذ حين ، قوى البنية طويلاً ضخماً ، يخيف الصوت . ولكنه على ذلك ضعيف النفس ، سيء الخلق مدخول الضمير ، فاتخذته زنوبة لنفسها زوجاً أو خليلاً ، وعاشت معه عيشة يقرعها القانون وتنكرها الأخلاق والدين ، ويمقتها أهل المدينة أم المقت . وهي حين رأيتها لأول مرة كانت قادمة على القرية التي كنا في تشتري ما تستطيع شراؤه من القمح والذرة والفول ، ثم لتعود به إلى حيث تمتص به أموال الفقراء والمعدمين .

ولم تكن « خضرة » أقل خطراً من زنوبة ولا أهون شأنًا ، وإنما كان مثلها معروفة بعيدة الصيت ، يتحدث الناس بها وبأبنائها حين تخرج المدينة وحين تعود إليها ، ويشقى بها الرجال والنساء جميعاً ، ويسعد الرجال والنساء جميعاً أيضاً .

كانت دلالة ، تفد إلى العاصمة من حين إلى حين ، فتجلبب بمقداراً غير قليل من هذه العروض الخفيفة اليسيرة الرخيصة التي مع ذلك فتنة للنساء وشقاء للرجال . لم يكن في المدينة بيت من

إلا وبابه مفتوح لخضرة تدخله جهراً وتدخله سرّاً أيضاً . ونفس سيدة البيت مفتوحة لخضرة أيضاً تتلقى أحاديثها وتسمع أنباءها ، وقد تفضي إليها بالأحاديث ، وقد تحملها الرسائل والأنباء . وكان نشاط خضرة يشتد ويعظم إذا كان الشتاء وجرت في النيل بواخر كوك مصعدة وهابطة ، فقد كانت خضرة تذهب إلى القاهرة وتعود ومعها ما تشتري من البضائع والعروض ، تصطحب هذه البواخر لأن أجور النقل فيها كانت يسيرة للدرجة الثالثة ، ولأنها كانت تستطيع أن تستصحب فيها من الحقائق والمتاع ما لم تكن تستطيع أن تستصحبه في القطار .

كانت إذا عادت إلى المدينة تسمع بها الناس ، وانتظر النساء مقدمها عليهن وزيارتها لهن . وكانت أسعد السيدات هذه التي تظفر بزيارتها الأولى تسبق إلى خير ما عندها من ضرورب الأقمشة على اختلافها ، ومن صوف الأعطار ، ومن هذه الأدوات اليسيرة الهينة التي يحتاج إليها النساء ويتنافسن فيها ، ومن أنواع الحرز بنوع خاص ، ومن هذه الحلقات الزجاجية المختلفة التي يتخذها النساء حلياً لأذرعهن يعانجن لبسها علاجاً شديداً دقيقاً خطراً ولها يفرغن من هذا العلاج دين أن تكون إحداهن قد أحدثت في يدها أو في ذراعها جرحاً بليغاً . وكان الأسبوع الأول لعودة خضرة من القاهرة عيداً متصلاً في البيوت للنساء والأطفال جميعاً ، أولئك يسعدون بما تعرض عليهن من عروض الزينة والمتاع ، وهؤلاء يسعدون بما تجلب لهم من الحلوى وجوز الخند ، ولا سيما هذه الحلوى التي كانت تجلبها خضرة من القاهرة والتي لم يكن من الممكن ولا من اليسير أن تصنع في المدينة ، فقد كانت رقيقة لينة لا تشقى بمضغها

الأضراس ، وتجدها فيها الأفواه والخلوق لذة لا مشقة فيها ولا عناء كهذه المائدة التي تجدها فيها يصنع في المدينة من الحلوى السسمية أو الحمصية الغليظة اليابسة التي يتعاون على إذابتها الريق والأضراس واللسان فلا تبلغ منها ذلك إلا بمشقة وجهه .

وكانت خضرة تحمل إلى الفتيات النواهد فتنة لا تشبهها فتنة بهذه المناديل الملونة التي كانت تجلبها لمن والي كن يفتتن في إدارتها حول رموسه وفي اتخاذها سجواً فتانة خلابة لشعورهن الثقال . ولا تذكر هذه الصفائف أو هذه الخيوط التي تنظم فيها قطع دقيقة رقيقة ضيقة من العدن والتي توصل بالصفائف ، وبصفائف الفتيات النواهد خاصة ، يكون لها على ظهورهن منظر حسن ، ويكون لها رنين حلو إذا مشين أو أتبن بعض الحركات . وكان الرجال يحتملون عودة خضرة من القاهرة باسمين بل مختلين أول الأمر ، يجدون في ذلك رضاً بريئاً وتلبية تلبية للنساء والفتيات ، فإذا مرت أيام وكثر تردد خضرة على البيوت واشتد طمع النساء فيها تعرض عليهن من المتاع ، وظهرت رغبة النساء ملحة على وجوههن وفي حديثهن وفي تنكرهن للرجال حين يظهرون تمنعاً أو إباء ، ضاقوا بخضرة أشد الضيق ، وودوا لو تذهب مرة إلى القاهرة فلا تعود .

وكانت خضرة إذا فرغت من إرضاء نساء المدينة على اختلافهن في الطبقة والثراء ، تنقلب بما يبقى لها من سقط المتاع بين ما يحيط بالمدينة من قرى الريف . وهي في ذلك اليوم الذي لقيتها فيه كانت تزور القرية ومعها حقيبتان أو ثلاث فيها من هذه الدوائر الزجاجية ومن الخرز والمناديل الملونة ما لم تقبله المدينة وما تتلقاه القرى بلهفة شديدة ، وما لعله

يؤرق ليل كثير من الرفيات ويملاً أحلام كثير من عذارى الفلاحين . ومن الخطأ أن يظن أن « نفيسة » كانت أقل شهرة من صاحبيتها أو أيسر من شأنها عند أهل المدينة وعند أهل الريف . كانت متقدمة في السن قد بعد عهدها بالشباب ، وتركت الشيفوخة في وجهها وصوتها وجسمها كله آثاراً قبيحة منفرة للنفوس ، ولكنها على ذلك كانت دخيلة في كل بيت ، صديقة لكل امرأة . كانت عرافة تقص ما كان ونصف ما هو كائن ، وتنبئ بما سيكون . وكانت لها صلة قوية بالجن والشياطين ، تسعى بالرسائل بينهم وبين النساء وتستخدمهم في كثير مما يشغل حياة المرأة الجاهلة الساذجة التي لا تزال تؤمن بأن سلطان الجن على الناس لا حد له . هذه ضيقة زوجها لأنه يخونها أو يؤثر عليها ضرراً فهي تستعين بنفيسة لتسلط عليه غريباً من الجن يصده عن غلبته أو عن زوجته . وهذه تحس من زوجها نشوزاً أو إعراضاً ، فهي تستعين بنفيسة لتتخذ لها من الطلقات ما يعطف عليها زوجها ويجعله قعيدة دارها . ولم تكن نفيسة أقل تأثيراً في نفوس الرجال والشبان منها في نفوس النساء والفتيات ؛ فقد كانت تحسن استشارة الودع وسؤاله عن الغيب ، وقد كانت تحسن استعطاف النساء إذا تفرقن أو أعرضن ، وقد كانت تحسن تسخير الجن في قضاء ما يلتوى من الحاجات . وكانت نفيسة مشغولة دائماً ، لا تكاد تستريح من السعي بالرسائل والحاجات بين رجال المدينة ونسائها وبينهم جميعاً وبين الجن والشياطين . ولكن شهرتها بذلك قد تجاوزت المدينة ووصلت إلى القرى وتسامع بها أهل الريف فأخذوا يسعون إليها ، ثم أخذت هي تسعى إليهم وتتقل بينهم بسحرها

وطلسها وودعها . وهي حين رأيها كانت تزور القرية لتحمل إلى أهلها بعض ما يحتاجون إليه من أنباء الغيب .

ولم يكذب بتصل الحديث بيننا وبين هؤلاء النسوة حتى كانت نفيسة أسرعهن إلى نفوسنا ، وأحرصهن على أن نمتلكنا وتصل بيننا وبين أصدقائنا من الجن والعفاريت ، لم تجد في ذلك مشقة ولم تتكلف له جهداً . فهذه الفتاة الذاهلة التي لا تكاد ترى ولا تسمع ولا تفهم ولا تجيب خليقة أن تلفت العجوز الساحرة إلى نفسها ، وقد فعلت . . . فما أكثر ما تلع هذه العجوز في السؤال لتعرف ما بهذه الفتاة ! والفتاة لا تجيب ، وأما أشد منها حرصاً على الصمت وإغراقاً فيه . والسؤال يتجه إلى دونهما ، فأضطر إلى أن أزعم أن بأختي علة قد أعيت الطبيب ، وداء لا نعرفه ولا نجد له دواء ، وما أيسر ما تفض السرة ويثر منها الودع على الأرض ! ثم ما أسرع ما تعمل فيه يد نفيسة جمعاً وتفرقاً ، وضماً وثراً ، تلامم بينه وتخالف ، وتتخذ منه أشكالا تقرأ فيها من أنباء الماضي والحاضر والمستقبل أعجب العجب .

إني لأراها الآن وقد مضت أعوام طوال منذ ذلك اليوم وهي تنظر في الودع وتطيل النظر ، ثم تظهر على وجهها هذه الآيات التي تدل على أنها تحاول أن تفهم شيئاً فلا تستطيع . وإني لأسمع صوتها المطم الذي كان هامساً دائماً مهما يرتفع . وإني لأحفظ جملها منذ ذلك اليوم ما نسبتها ولن أنساها . وكيف أنساها وقد صدقها الزمان ؟ نظرت إلى ودعها ، ثم أطالت النظر فيه ، ثم رفعت عينها إلى أختي فأطالت النظر في وجهها ، ثم عادت إلى الودع فأثبتت عينها فيه ، ثم رفعت رأسها وهي تقول للفتاة : إن أمرك يا ابنتي لعجيب ، إني أراك بين اثنين : أحدهما

يمبك وسيؤذيك ، والآخر آذاك وسيحبك ، وإني لأحاول أن أفهم فلا أستطيع . والرأي لك يا ابنتي أن تستشري سادتنا من الجن أو سادتنا من الأولياء . . . وما أرى أن هذا عليك عسير ، ففي هذه القرية القريبة منا والتي تستطيعين أن تبلغيها في ساعة وبعض ساعة ما تحيين : فيها مقام سيدنا فلان ، وإنه ليأتي بالأعاجيب ، وفيها دار فلاة وإن قرينها من الجن ليحدث بالأعاجيب أيضاً . ولم تكذب نفيسة تنطق بالحيلة الأولى من حديثها حتى وثبت أماناً كأنما دفعت إلى الثوب دفعاً آلياً ، وانطلقت مسرعة فلم نرها إلا بعد وقت طويل .

٧

ها أنت ذا أيها الطائر العزيز تنشر في الجو المظلم الساكن نداءك السريع البعيد كأنه استغاثة المستغيث . . . ما خطبك ؟ وما أنياؤك ؟ وما الذي يغريك بي ويسلطك علي ؟ ! لا أكاد أمضي في النوم حتى تسرع إلى فتوقظني ، كأنما أخذت على نفسك أو أخذ غيرك عليك عهداً ألا تخلني بيني وبين النوم ، وكأنما كلفت نفسك أو كلفك غيرك أن توقظني إذا تقدم الليل لتظهرني من الأمر على ما كان خليقاً أن يفوتني إن استسلمت للذة الأحلام . . . ! ابعت نداءك سريعاً بعيداً أولاً تبعته فقد أيقظتني ، وما أرى أني سأعود إلى النوم دون أن أشهد شيئاً كالذي شهدته أمس حين كانت أختي ماثلة ذاهلة كأنما تنتظر أخبار السماء . إني لأشعر بأنني سأراها ماثلة ذاهلة حيث رأيها أمس ، وإني لأشعر بالخوض إليها ، ولكن نداءك لا ينقطع ، إن لك لشأناً . . !

ماذا ! إن جو الليل المظلم الساكن المهيب ليس خالصاً لك هذه الليلة كما تعود أن يخلص من قبل . ماذا أيقظ الطير ؟ فإني لأسمع خفق أجنحتها ، وأحس كأنها متشرة قد خرجت من أوكارها حائرة مضطربة في هذا الجو الخفيف . ماذا أيقظ الكلاب ؟ إني لأسمع نباحها قريباً متصلاً بعيداً فيه إلحاح وترجيع كأنها تدعو من لا يسمعها .

ماذا أيقظ الناس ؟ إني لأحس حركة خارج الدار ، وإني لأسمعهم يتدافعون ويتنادون ، وإني لأشعر كأنهم يسرعون إلى غاية لا أعرفها .

ماذا أيقظ من في الدار ؟ إن الحركة من حولي لتكثر وتختلط وتشتد ، وإني لأشعر بالفزع قد انتشر في الجوكما يتشر الدخان الكثيف . وهذا نداءك أيها الطائر العزيز ما زال متصلاً سريعاً بعيداً ، كأنك لا تוכל بإيقاظي وحدي ، وإنما وكلت بإيقاظ الناس جميعاً والأحياء جميعاً انظر ! إن كل شيء قد استيقظ من حولك ، ولكن نداءك ما زال متصلاً سريعاً بعيداً . أتريد أن تحدث إلى النجوم ؟ ولكني أنهض لكل ما أحس حولى من حركة وضجيج وعجيج واضطراب ، فأسال أخى هذه المائلة الداهلة : ماذا حدث ؟ ولكنها لا تجيب كأنها لم تسمع شيئاً ، فيأخذني حلق وغيط ، وأهزها هزاً عنيفاً وأنا أصبح بها : ماذا ! أتريد أن تسمعين ؟ ألا ترين ؟ هنالك تنبه وتجيبي في شيء من الوجع : ماذا تريدن ؟ فأتركها مستيئة منها وأهبط فناء الدار حيث اجتمع النساء يتساءلن ويتجاوبن ، ويشند بينهن لفظ مختلط لا يكاد ينقضي .

هنالك أجد أمنا بين هؤلاء النساء ، شاهدة كالغائبة ، ومستيقظة كالنائمة ، تسمع ولا تقول . فإذا سألتها عما حدث أجابتني في صوت

هادئ حزين : زعموا أن رجلاً قد قُتل قريباً من القرية يقال له عبد الجليل ، وقد جاء الصريخ إلى العمدة فأيقظ رجاله وهو يستحثهم للتماس القاتل . وقضينا بقية الليل ساهرات نسمع ما يصل إلينا من الأخبار التي إن ابتدأت فلا نهاية لها ، وهي أخبار القتل في المدن والقرى وفي الحقول وعلى الطريق العامة . وقد زعم من حدث من أهل الدار أن مقتل هذا الرجل الذي صرع الليلة قد كان أمراً محمواً .

لقد كان هذا الرجل شيخ الخفراء في القرية ، وكان قوياً شديداً البأس عظيم السطوة ، وقد حمى القرية من اللصوص والمعتدين ، وكانت له في القوم آثار لم تنس ، فهم يطلبونه بها . وقد اضطربت القرية منذ ليال لأن هذا الرجل أقبل وقد انقضى من الليل أكثره على بيت من البيوت ، فجعل بطرق بابه طرقاتاً عنيفاً ، ويدعو صاحبه بصوت كأنه الرعد أن أفيق أيها المحنون فإن اللصوص قد اقتحموا عليك الدار . فذعر أهل البيت لهذا الطرقة وهذا النداء ، وأسرع الرجل إلى الباب ، فما رآه إلا شيخ الخفراء يرق ويرعد ويلج في النذير ، ثم دخل الدار وطاف بحجراتها وغرفاتها يلحتمس اللصوص ولكنه لم يجد أحداً . وقد استيقظ الناس واجتمعوا حوله وحول صاحب الدار ، وهو يقسم ويقلظ في القسم لقد رأى اللصوص يقتحمون الدار اقتحاماً .

منذ تلك الليلة تحدث أهل القرية بأن شيخ الخفراء قد تعرض للموت ، وأنه إنما روع أهل تلك الدار ليلجأ إليهم ويأمن عندهم من طاليه ، ومنذ تلك الليلة استيقن أهل القرية أن قوماً قد نذروا دم شيخ الخفراء ، وليسوا بمقلعين عنه حتى يقتلوه . وما هم أولاء قد وفوا بالنذر

وقتلوا عبد الجليل. وهاهو ذا العمدة يفرق رجاله في كل صوب ، يأمرهم باقتحام هذه الدار ، وبالبحث عن فلان والقبض على فلان والتوثق من فلان . وهذه القرية هائجة ماثجة تسأل وتبحث ، وتستقصي وترتاع . وهذه جثة عبد الجليل طريحة غير بعيد من الجسر ، قد فارقتها الحياة بعد احتضار طويل ثقيل ، وقد قام عندها الرجال يحفظونها في مكانها حتى تأتي الشرطة من المدينة ، وحتى يأتي المحققون . وقد أقبلوا جميعاً بعد أن ارتفع الضحى ، فأقاموا حول الجثة حيناً يسألون وبشرح الطبيب . ثم أقبلوا نحو القرية ونساء الدار مشرفات ينظرن إليهم ، وهم يسعون إلى بيت العمدة ليشربوا القهوة ، ويمضوا في التحقيق ، ويصيبوا شيئاً من طعام .

وأنا مشرفة أنظر مع الناظرات . ولكن ماذا ؟ إنى لأراجع مسرعة وقد اضطرب قلبي اضطراباً لا يكاد يستقر معه في صدرى ، وقد تكلفت جهداً عنيماً لأجس صيحة كادت تنبعث من فمي ، وهذه أمى تجرتى إليها لا تقول شيئاً ولكنها تهبط معي فناء الدار ، ثم تهدئي بعض الشيء ، ثم تقول لى كإلهامسة : إياك أن تظهرى أو أن تدعى هذا المكان فإنه والله إن رأك لم ينصرف حتى يستصحبك . ذلك أتى كنت قد رأيت المأمور . لماذا أكذب نفسي ! لقد هممت غير مرة أن أسعى إليه وأن أسأله عن خديجة ، وأن ألح عليه في أن يستصحبني ليردني إلى تلك الحياة الناعمة وليحميني من هذا الظلام الذي كنت أدفع إليه على غير إرادة ولا رأى .

نعم ! لقد هممت بهذا كله ، ولقد كدت أفعل ، ولكنى رأيت

أمى وما كانت تستصحب من يؤس قديم ، ورأيت أخنى وما كانت تستقبل من يؤس حديث ، فأثرت شقاء هاتين الشقيتين على ما كنت أحب لنفسى من الخير ، وبقيت معهما أنتظر ما تضرر لها الأيام .

٨

آمنة . . . آمنة . . . أقبلى . هذا صوت أمنا ينتهى إلى ، وقد انتحيت ناحية مع زنوبة ونخضرة على السطح ، نتحدث ألواناً من الحديث ، وأخنى جالسة غير بعيد قد شغلت عنا بما يملأ نفسها من هم وحزن ، فإذا سمعت الصوت أسرع إلى أمى في الناحية الأخرى من سطح الدار ، فإذا هى قائمة قد ظهر عليها النشاط وانجلت عن وجهها سحابة الحزن التى كانت تُغشى ، وهى تبسم وتشير بيديها وتقول لى : انظرى انظرى ! هذه والله إبل « بنى وركان » . فأنظر فأرى أعرابياً كأنه الشيطان وقد أناخ قريباً من الدار جملين عظيمين وأخذ يحط عن أحدهما بعض الأثقال . أمى مستبشرة متلهلة تشير وتلح في الإشارة وتقول : ألم تعرفى خالك ناصراً ؟ ألم تعرفى هذين الجملين ؟ عرفت خالى ، فما أكثر ما كنت ألقاه أيام الطفولة والصبا ، وما أكثر ما كنت أخافه حين ألقاه ، وأكره منه هذا العنف الذى يبتدر كل من اتصل به ، وهذه اللهجة القاسية التى يمتاز بها حديثه ، وهذا الصوت القاطع الذى يلقى إليك الكلمات فى حزم وعزم وشدة لا تقبل مراجعة ولا تسمح بجidal ! نعم عرفت خالى ناصراً ، وذكرت أنى كثيراً ما كنت أنقبه إذا لقيته ،

ولا أستجيب لدعائه إذا دعاني إلا كارهة ، ولا أطمئن إلى ما كان يظهر لي من مودة وعطف وحنان ، ولا أقبل إلا راغمة ما كان يقدم لي أحياناً من البلح والعجوة ، يريد أن يشعلني ويترضاني .

نعم ! عرفت خالي ناصراً ، وذكرت أنني كنت سيئة الظن به ، شديدة النفور منه ، وأنني كنت ألوم نفسي أحياناً على سوء ظني وشدة نفوري . حتى إذا صرّع أبونا ورأيت كيف استقبل أمي بأنباء هذا المصراع وكيف فسا عليها وعلينا ، ولم يفكر في أنها أيم وفي أننا يتيمان ، وإنما فكر في الأسرة وحديث الناس عنها ، وما يجرّ عليها هذا الخطب من عار . . .

ثم لم تكد تمضي أيام حتى أقبل ذات صباح ، مظلم الوجه قاسي اللحظ جاني اللفظ ، فأقنع أمنا بوجوب الرحيل ، وأنبأها بأنه سيعود لهذا الرحيل عدته وسيصحبنا حتى يعبر بنا البحر ويبلغنا مأمننا في قرية من قرى الريف .

ثم جاء هذا اليوم الذي أخرجتنا فيه من دارنا ، وأبعدنا فيه عن قريتنا وثقانا فيه من أرضنا ، وصحبنا إلى قرية من هذه القرى المنتشرة وراء البحر ثم أسلمنا إلى القضاة ، وانصرف عنا راجعاً إلى حيث ينعم مع الأسرة بالدعة والخفض وبالأمن والهدوء .

منذ ذلك اليوم لم أشك في أن رأيي فيه لم يكن خاطئاً ، وأن حكماً عليه لم يكن قاسياً ، وأن نفوري منه لم يكن إلا صورة صادقة لما ينبغي لهذا الرجل الخليط في قلب فتاة ضعيفة بريئة وادعة ، لم تبجن على أحد شراً ، ولا تفهم أن يحني عليها أحد شراً . وكانت أمي وأختي تتبعانه

ببصريهما محزوتين لفراقه أشد الحزن ، وكأنه كان يمثل في نفسيهما صورة الوطن الذي نفينا عنه . أما أنا فكنت أنظر نحو الغرب الذي كان بوجه بصره شطره ، ولكني لم أكن أراه لأنني لم أكن أحفل به .

إنما كنت أحاول أن تنفذ عيني من هذه المسافة البعيدة والأمد المنفسح إلى هذه القرية المطمئنة التي أخرجت منها لإخراجاً ، لعل أرى دارنا ، ولعل أرى هذا الغناء المنبسط أمامها ، والذي كنت ألعب فيه مع أترابي من الغلمان والصبيان ، ولكني لم أكن أرى القرية ولم أكن أرى الدار ، وإنما كنت أرى هذه الهضاب المرتفعة في السماء بعض الشيء ، وأقدر أن قريتنا تقوم هناك على هضبة من هذه الهضاب . وكنت أرى هذا الخط من الماء يحول بيننا وبين هذا السهل الجميل الذي ينبسط من دون هذه الهضاب ، والذي كنت لا أمضي فيه قليلاً حين نفينا من قريتنا إلا أحسست كأنني أترك فيه قطعة من نفسي أنثرها في أرضه الخضراء ثراً .

نعم ! عرفت خالي ناصراً وهو قائم يلزأ جملته بعد أن وضع أثقاله كأنه الشيطان ، وما تصوره قط إلا شيطاناً . ومنذ هذه اللحظة التي رأيته فيها بضع أثقاله وسمعته فيها يسأل عن صاحب الدار ، لم أزد إلا يقيناً بأنه شيطان . سأل خالتنا عن صاحب الدار . وكان رجال العمدة قد دخلوا عليه فأنبأوه بأن رجلاً أعرابياً عليه مظاهر القوة واليأس والوقار والثراء ، قد أقبل يسأل عنه ، فخفّ العمدة لاستقبال ضيفه ، وما زلت أراه يستقبل الأعرابي باسمه وادعاء ، والأعرابي يحنيه في غلظة وجفوة ، ثم يقول له متعالياً : إن النبي قبل الهدية يا عمدة . يقول ذلك ويشير إلى أثقاله التي حطها عن جملته إشارة المكبر لها الدال بها ، والعمدة يدعوه

بعض رجاله وبشير إليهم أن يحملوا هذه الأثقال وأريحوا هذين الجملين. ثم بدعوضيفه الأعراي، رفيقاً به شاكراً له، إلى الراحة والدخول معه إلى الدار. وقد اطمأنت الدار بالأعراي، ولقي من كرم مضيفه وبشاشته ما أرضاه، فلما مضت ساعة أو ساعات والناس مجتمعون حول عمدتهم يخوضون فيما تعودوا أن يخوضوا فيه من الحديث، قال فجأة: إن لنا عندك ودائع يا عمدة، فاردّد علينا ودائعنا! فقلقه بأمر أن تؤدّي الأمانات إلى أهلها. قال العمدة: ودائعك محفوظة لك، مردودة عليك يا شيخ العرب، فما ذاك؟ قال الأعراي: امرأة أقبلت منذ أيام ومعها فتاتان، سألتك الضيافة فأويت ابنتها وأحسن لقاءهن وأكرمت مثواهن، ونحن أعرف الناس بحق الكرام. قال العمدة: وما أنت وهذه المرأة وابنتاها؟ قال الأعراي: هي أختي. قال العمدة: فقد نزلن على الرحب والسعة، وما فعلت إلا ما كان يجب على، وما نفع هذه الدور إذا لم تفتح لإيواء الغرباء! ولكن ودائعك يا شيخ العرب لن تردّ عليك حتى تقيم بيننا حيناً فتسمع منا ونسمع منك؛ فإن حديث الأعراب يلذنا ويرضينا، وقد بعد عهدنا به منذ رحل عنا سعيد وأصحابه، وكانوا قد نجسوا في ظاهر القرية شهراً، ثم ارتحلوا لا عن قلى ولكن عن رغبة في الرحيل. واتصل الحديث بين العمدة وأصحابه وبين هذا الأعراي حتى انقضت ساعات السمر.

أما أنا فلم أطعم النوم في هذا الليل الطويل الثقيل؛ لأن أختي لم تطعم فيه النوم، ولم يحتاج طائري العزيز إلى أن يوقظني بندائه السريع البعيد، ولم أسمع منه هذا النداء كأنه عرف أني ساهرة مؤرقة فلم يحتاج إلى تنبيهي، فانطلق في الجو القسيح بينه وبين من الذين لم تؤرقهم الموم والأجزان.

عدت إلى أختي كئيبة ضيقة الصدر متكلفة مع ذلك أن أختي ما أجده من الكآبة وضيق الصدر، فأنبأها بمقدم خالنا وبأننا مرتحلات في أكبر الظن إذا أسفر الصبح، وجعلت أزيّن لها الرحيل وركوب الإبل واجتياز القرى والنظر إلى هذه الحقول المنبتة بيتنا وبين البحر، والنظر إلى هذا الخط من الماء الذي يفصل بيتنا وبين بلادنا في الغرب، ننظر إليه مقبلات عليه بعد أن نظرنا إليه مدبرات عنه، ثم نعبّر هذا البحر ونمشي على هذا السهل الجميل النضر الذي تلتقي فيه أرض الصحراء المحبذة وأرض الريف المخصبة؛ ثم نصعد تصعيداً هيناً كأنما نرقى في الدرج إلى هذه الهضبة الجميلة التي تقوم من ورائها قريتنا وادعة هادئة كأنها تحتمي بها من كل طارق يأتيها من الشرق. أنا أزيّن لها هذا كله بلساني، وأتكلف لها مظهر المراحة له المغتبطة به المقبلية عليه في سرور ولذة وشوق، والله يعلم إن كنت لمخزونة أشد الحزن مبيتة أشد الابتاس، تنازعني نفسي إلى ما وراءنا نحو الشرق من هذه المدينة الكبيرة التي ترامت أطرافها، وامتدت على ضفة النيل هادئة وادعة ناعمة بما فيها

من حضارة وترف وثراء . والله يعلم أني لم أكن مقبلة على هذا الغرب الذي سأدفع إليه إذا أسفر الصبح إلا برغمي وعلى أشد الكره مني . ما كنت أحفل بالحقول المثبتة ، ولا أجد شوقاً إلى هذا الخط من الماء ، ولا أجد كلفاً بهذا السهل الجميل النضر ، ولا أجد رغبة في التصعيد حين إلى هذه الهضبة المهيبة ، ولا أجد حنباً إلى هذه القرية الوادعة التي درجت فيها . إن هناك الحقولاً أخرى مثبته نحو الشرق تنحدر إلى المدينة في دعة وفور وتكسر جميل ، وإن هناك لخطاً عريضاً من الماء أشد روعة وجمالاً وإثارة للسحر في القلوب من هذا الخط الضئيل النحيل يسمونه بحراً وما هو بالبحر ، وإنما هي قناة لا يصح أن تذكر مع النيل . وإن هناك لدوراً شاهقة واسعة مترفة تحيط بها الحدائق الندية ، وتلذذ الإقامة فيها والحياة بين غرفاتها وحجراتها واللهم بين ما يحيط بها من الأشجار والأزهار . وإن هناك لفنقة جميلة وسيمة رقيقة هي التي أحسن إلى لقائها وأتحرق على تجديد العهد بها . وماذا أصنع في تلك القرية ، وأى حياة تبا لي فيها ! كلها شظف وخشونة ، وكلها جهل وغفلة ، وكلها رجوع إلى ذلك الطور الأبله الذي جعلت أخرج منه قليلاً قليلاً حتى امتزت من أمي وأختي وأخذت أشعر بأنني أحسن منهما فهماً للحياة ، وأصدق منهما حكماً على الأشياء ، وأشد منهما صبراً على الخطوب ، وأمهر منهما في التخلص من الشدائد والكوارث . ألت أدنى منهما إلى الطفولة ، وأجلد منهما أن أكون غرة غافلة ؟ ومع ذلك فإني أنظر إليهما كما تنظر الأم إلى صيغتين ضعيفتين تحتاجان إلى الحماية والحب وإلى العطف والعون ! كذلك كنت متناقضة أشد التناقض ، مختلفة أشد الاختلاف ،

أزبن لأختي ما أبغضه أشد البغض ، وأبغضت نفسي بما ليس إليه من سبيل . وكثيراً ما خطر لي خاطر فلم أقف عنده لأنه كان يظهر لي سخيفاً مستحيلاً ، كثيراً ما خطر لي أن أتغفل من حولي إذا تقدم الليل ، وأن أنسل من الدار وأن أهم على وجهي نحو الشرق متسابة بين المزارع والحقول وأتقرى كما تساب الحبة الدقيقة ، حتى أبلغ المدينة مع الصبح أو مع الضحى ، وإذا أنا حيث أحب أن أكون .

لم أقف عند هذا الخاطر الذي كان يمر بنفسي من حين إلى حين مرّاً سريعاً فينفذ منها كما ينفذ السهم من الهدف ، لأن الاستجابة له لم تكن ميسورة . وكيف الانسلال من الدار والأحراس عليها قيام ! وكيف الانسياب في الريف ؟! وماذا تصنع فتاة وحيدة في ضوء النهار فضلاً عن ظلمة الليل ! وكيف لي بترك هاتين البائستين تحملان وحدهما ثقل الأحداث والخطوب ؟ أقيمي أقيمي يا آمنة ! وانسي نفسك ولذتك وراحتك ، وانظري إلى هذه الفتاة الجالسة أمامك ، إن ذهوها ليمزق القلب ، وإن شحوب وجهها ليذيب النفس ، وإن هذه الدموع التي أخذت تنحدر من عينيها في سكون وصمت خلقة أن تصرفك عن كل تفكير إلا فيها ، وعن كل عناية إلا بها . ألقى ألقى يا آمنة في تزيين الرحيل ، وفي التحلث بما سيجد في القرية من أمن ، وبما منستقبل فيها من هدوء واستمتاع بالحياة الراضية ، لا نخدم أحداً وقد يخدمنا الناس .

ولكن أختي لا تسمع لي أو هي تسمع ولا تفهم عني . هي مثل لا تحب الرحيل ولا تحن إلى الغرب ، وإنما تحن إلى هذا الشرق الذي تركت قلبها فيه : هنالك في ذلك البيت الجميل الذي تحيط به هذه الحديقة الواسعة ويقوم عليه ذلك العامل من أهل الريف ، ويعيش فيه ذلك الشاب المترف الذي يسمونه الباشمهندس .

في هذا البيت تركت أخفى قلبها . وهي من أجل ذلك ذاهلة ذهولاً متصلاً ، وهي من أجل ذلك عاجزة عن أن تسمع لنا أو تفهم عنا أو ترد علينا جواب ما نلقى عليها من سؤال . كنت أحسبها محرونة لما تورطت فيه من خطيئة ، وما أشك في أنها أحست هذا الحزن ، وما أشك في أن الندم قد عذبها تعذيباً ، لكنني بعد أن أنفقت معها ليلة كاملة وتبيت من أمرها ما تبيت استقبلت الصبح ونفسي ثلوب أسى وحسرة على هذه الفتاة التي تنظر ورأها فترى حياً مضيقاً ، وتنظر أمامها فترى خوفاً مروّعاً ، وتود لو استطاعت أن تعود أدراجها إلى حيث الحب وما يمكن أن يستيع من نعيم أو يؤس ومن سعادة أو شقاء . ولكنها تدفع إلى أمام . تدفع إلى حيث الخوف والروع . وإلى حيث اليأس والفتنوط ، تدفع فتدفع ، لا تستطيع أن تقاوم ولا أن تظهر شيئاً ينم عن مقاومة أو بممانعة . يا لها من قوة هائلة تسيطر على النفوس فتحو حطها من الشخصية والإرادة محواً ، هذه القوة التي يسمونها الحياء ورعاية العرف وما له من حرمان ! أنا أكذب على أخفى فأزيس لها ما أكره ، وهي لا تكذب على أحد ولا تحفل بما تسمع ولا تكذب على نفسها ، وإنما أسلمت نفسها للقضاء وامنيقت أن خير ما في حياتها قد انقضى منذ أمرت أمنا بترك المدينة . فلم نخالف من أمرها وإنما استجبنا طائعتين . ولكن ميم كانت تخاف ؟ وما هذا الروع الذي كانت آياته تبدو على وجهها بين حين وحين . والذي كان يبعث في جسمها من وقت إلى وقت رعدة قوية توشتك أن تدفعها إلى التوب ؟ إن في هذا الغرب الذي تدفع إليه خوداً وخولاً وبأساً وقنوطاً ، وكل هذا يسوء ، وكل هذا يملأ القلب حزناً وأسى ! ولكنه لا يروع ، ولا يبعث في النفوس هذا الجزع ، ولا يثير في الأجسام هذه

الردة العنيفة الخفيفة . كلا ! لم تكن مخطئة ولا غالية حين كان الروع يملأ نفسها ، فقد كانت تعلم ما لا أعلم ، وكانت تقدر ما لا أقدر ، وكانت تمر أمامها صور حزينة شاحبة ، ممتعة مذعورة باعثة للذعر ، صور فتيات ثلاث لم أسمع بهن قبل هذه الليلة ، ولكنهن كن حديث المدينة منذ عام وبعض عام : خرجن من المدينة كما خرجنا نحن ، أو أخرجن منها كما أخرجنا نحن ، ثم لم يعدن إليها ولم تعد إليها أسرهن ، وإنما عادت إليها أحاديثهن ، كلها خوف وروع ، وكلها بأس وقنوط ، وكلها جزع وفرع ، وكلها بلونها الدم وقد يساقط منها قطرات .

ما أنت وهذه الخواطر الدامية أيها الفتاة العسة ؟ ! إنما ترحلين بين أمك وأختك وخالك إلى قريبك التي ولدت فيها لتعيشي بين قوم أحبك وأحببهم ، وما زالوا بحبوتك ولقد كنت تحبينهم منذ حين ، أتذكرين ! لقد كنت أكثرنا حديثاً عنهم وحيناً إليهم في المدينة كلها التقينا . ما بالك تخافين منهم وتشفقين من لقاءهم وإنك لواجدة عندهم من الحماية والأمن ما لا سبيل إليه في حياة الغربة والعمل في هذه البيوت التي لا يعطفها علينا حب ولا ود ؟ ! ولكنها لا تسمع لي أو لا تفهم عني ، وإنما هي مشغولة بما تركت من حب وبما تستقبل من روع ، تمر أمامها صور ذلك الشاب الجميل المترف الذي أحبه ، وتمر أمامها صور هؤلاء الفتيات خائفات خيفة مروعة مثيرة للروع . أما هذه التي تسمى أمينة فقد احتر رأسها احترازاً . وأما هذه التي تسمى مارنا فقد شق صدرها شقاً . وأما هذه التي تسمى ملزمة فقد يقال إنها دفنت حية ولقيت حتفها مختنقة في التراب . ما الذي يتظرنني من ألوان الموت هذه ؟ ! وأنا أرد عنها هذه الخواطر جاہدة ، أنلطف حيناً حتى أقبلها وأداعبها ، ثم أشد

في التلطف بها حتى استعطفها بما أسفح من دموع ، ثم أعنف وأغلو في العنف وأذلرها بأني سأقص خوفها كله على أمنا وخالتنا ، وسأستوثق لها منهما أو سأمنع عليهما فلا أتبعهما ولا أدعها تتبعهما ، وسأستجير لنفسى ولما عندهما بهذا الرجل الكريم الذى نحن ضيف عنده . ولكنها إذا سمعت منى ذلك ثابت إلى نفسها وردتني إلى الأناة والمهل ، وأظهرت الجأء والصبر ، وتكلفت ثقة لا تابث أن تضطرب وأطمئناناً لا يلبث أن يزول .

بالك من ليل طويل بغىض ، لم تعرف فيه راحة ولا أمناً ولا هدوءاً ، وإنما كنا فيه نهب الندم المفضى على ما فات ، والخوف المهلك لما هو آت ، والضيق الشديد بما نحن فيه ، والليل يطول ويطول ، كأنه يحمل أثقالاً لا قبل له بها ولا قدرة له على السير معها ، فهو يزحف زحفاً بطيئاً أشد البطء ، والهم يغشى نفوسنا تغشية ، وهذه الخواطر المنكرة تدور في رموسنا دوراناً متصلاً يكاد يفنيها . ولكن ما هذا الصوت الذى يشق هذا السكون الذى نحن فيه شقاً ويردنا إلى أنفسنا فزعيتين جزعيتين كأنه أخرجنا من نوم عميق ؟ إنه صياح الديك يودع الليل ويؤذن بمقدم الصبح . بماذا تصبح أيها الديك ؟ وبماذا تريد أن تنبأ أو تنبأ لنا ؟ قالت أختى : أتذكرين صاحبة الودع ؟ إنها رأيت بين رجلين أحدهما آذاني وسبحني والآخر أحبنى وسيؤذني ، ألم تفهمي عنها شيئاً ؟ قلت : وماذا تريدن أن أفهم عن هذه العجوز الحماة ومن هذا السخف الذى تردده في كل مكان وتقدمه إلى الناس جميعاً ؟ كل رجل عندها بين امرأتين أو بين نساء ، وكل امرأة عندها بين رجلين أو بين رجال . قالت

أختى : فإني أرى هذين الرجلين رأى العين وأعرفهما كما أعرفك ، وستريهما وستعرفيهما ، وستبغضين أحدهما أشد البغض وستحبين الآخر حباً كثيراً ! وهذا الهواء يضطرب ويضطرب معه صوت المؤذن يدعو إلى الصلاة ، والناس يستيقظون ويخرجون من منازلهم أفراداً بين ذاهب إلى المسجد وذاهب إلى الحقل ، ونحن نستقبل هذا الصبح الشاحب بنفوس شاحبة وقلوب واجفة ووجوه حائلة . لو استطعنا لأحجمنا ، ولكننا ندعى إلى الإقدام ولا نستطيع امتناعاً على هذا الدعاء .

هذان الحملان قد هينا للرحيل . وهذا خالتنا قد قام عندهما كأنه الشيطان ، وهذه أمنا تدعونا إلى الخروج في رفق . وما نحن أولاء نودع من عرفنا من أهل الدار . ثم تمضي ساعة وساعة وإذا ضوء الضحى يغمرنا في هذا السهل الرينى الجميل الذى تمتد فيه عن يمين وشمال هذه الحقول النضرة ترتاح إليها النفوس والأبصار . ولكن هناك نفوساً لا ترتاح وإنما هي مضطربة دائماً ، وأبصاراً لا تستقر وإنما هي زائفة دائماً... إلى أين يمضي بنا هذان الحملان !

١٠

إنما يمضيان بنا إلى حيث الأمن والدعة ، وإلى حيث العز والمنعة ، وإلى حيث تقضى حياتنا كما تعود أمثالنا من فتيات القرية أن يقضين حياتهن هادئات فاعمات ، حتى إذا تقلعت بهن السن وأدركن ميعه الشباب ونضرت سعى إليهن الأزواج من شباب القرية أو من شباب القرى

المجاورة ، فأصبحت كل واحدة منهن سيدة في البيت أو سيدة في الحيام ، واستقبلت حياة فيها الجهد والعمل والكد ، وفيها الأبناء والبنات وما يستبعون من بهجة وقرّة عين ، ومن شقاء وحزن وأمل وإشفاق . انظري يا ابنتي الكبيرة إلى كل هذا النور الذي يصبه الضحى علينا صباً والذي يغمرنا ، والذي تخفي فيه كأنما نخوض بحلة البحر . انظري إلى هذا النور الذي يغمرنا ويغمر السهل من حولنا ؛ وانظري إلى هذه الحقول تنبسط عن يمين وشمال لا تكاد تنهى ؛ وانظري إلى هؤلاء الرجال والنساء وإلى هؤلاء الفتيان والفتيات وقد ملأهم النشاط ، وبعث فيهم الجهد حياة لا حد لها ، فهم يذهبون ويحيئون وهم يعملون لا يعرفون كلالاً ولا سأمًا ، وأصواتهم ترتفع لا بالشكوى ولا بالأنين وإنما ترتفع بهذا الغناء الساذج الخلو الذي يبعث في هذا الجو فغيات ساذجة حلوة ، والذي يصور الأمل في غير إسراف ، والرضا في غير استكانة ، والاطمئنان في غير حزن ، وحب العمل على كل حال ، والثقة بالله على كل حال أيضاً .

انظري يا ابنتي واسمعي ، ثم سلى نفسك : أتجدين فيما ترين أو فيما تسمعين ما يثير خوفاً أو يبعث روعاً أو يدفع إلى يأس ؟ كل شيء آمن وكل شيء يدعو إلى الأمن ، كل شيء هادئ وكل شيء يدعو إلى الهدوء . إن ظلمة الليل لمنكرة وإنما لتحب الخوف وتثيرة ، وإنما لتبعث الأشباح من مكانها ، وإنما لتغري القلق بالنفوس وتسلط الهم على القلوب . . . لقد كنت يا ابنتي تثيرين في نفسي مثل ما كان يثور في نفسك من الخوف حين كنت تتحدثين إلى وظلمة الليل تغمرنا من كل مكان . فأما الآن وقد انجلت هذه الظلمة وأصبحت لا أمد عيني إلا

رأيت ، ولا أمد أذني إلا سمعت ، فإني لأضحك منك ومن تلك الهواجس التي كانت تروعك ، ومن تلك الأشباح الحمراء التي كانت تراءى لك وتمثل أمامك . وإني لأضحك من نفسي ومن انقيادها لك بعض الشيء وتأثرها بك إلى حد ما . انظري واجتهدي في أن تستحضري الأشباح الحمراء ، إنها لا تستطيع أن تظهر ولا تجرؤ على أن تراءى فضلاً عن أن تمثل أمامك أو أن تسايرك . إن الأشباح لا تحب النور ولا تستطيع أن تظهر في وضوح النهار ، إنما الأشباح والخوف والفرع واليأس بنات الليل ، تطمنن إليه ويطمئن إليها ، تستظل به ويسقط عليها ظله المظلم الساكن الخفيف ؛ فإذا ابتسم الصبح وأشرق الضحى واستيقظت الحياة ذابت كل هذه المروعات ، وانجابت مع الظلام ، فلم يبق لها أثر في نفس ولا سلطان على قلب . انظري إلى هذا الضحى المشرق ، وأفيض بعض إشراقه على نفسك . انظري إلى هذه الحياة التي يملؤها النشاط فأفيض منها على قلبك . أأنت تحسِن الحاجة إلى أن ترفعى صوتك بالغناء ، كما يتغنى هؤلاء الشباب عن يمين وشمال ؟ ! ثم انظري إلى أمنا وخالنا ، إن جلهما ليسعى بهما مرحاً شديد النشاط ، وإنهما ليتحدثان في هدوء وأمن واستبشار وشيء من الحنان كأنما يذكران أيام صباهما وشبابهما ، وكأنما يودان لو رجعت بهما الأيام إلى مثل هذه السن التي نحن فيها . أترين عليهما مظهراً من مظاهر الريبة أو آية من آيات المكر ، أو دليلاً من دلائل الكيد ؟ كلا ، إنهما ليمترجان بما حولهما فإذا هما حياة وأمن وأمل ، فلنكن مثلهما حياة وأمنًا وأملًا .

ويسلك حديثي هذا سبيله إلى قلب أختي كما يسلك النور والحياة سبيلهما إلى نفسها ، وإذا هي تطمنن بعض الشيء لا تبسم للحياة ولكنها

لا تسرف في العيوس ، إنما هي كآبة ملحة تغشى نفسها ولكنها كآبة هادئة لا تثير روعاً ولا جزعاً ولا بأساً . والطريق تمضي بنا مستقيمة جميلة بجيبها إلى النفوس هذا النور القوي الذي يزداد قوة وصراحة وإلحاحاً كلما تقدمت النهار ، وهذه الحقول الخصبة يملؤها هذا النشاط الحصب وهذا الغناء الخلو يرتفع في الجو ، ويمتدح بما يملؤه من الضياء والهواء ، ونحن لا نجزو قرية إلا دفعنا إلى قرية أخرى ، حتى إذا تقدمت النهار وكدنا فبلغ المصير ، وكنا قد انتهينا إلى بعض القرى قال خالنا : لقد آن لنا أن نسريح ساعات ، ولست أرى بأساً بأن نستأنف السفر إذا أقبل الليل ، فقد أشرفنا على بلادنا وما أرى أن الليل سيتصف حتى نكون قد بلغنا البحر عند بني فلان فإذا أسفر الصبح عبرنا إلى أرضنا ولا يرتفع الضحى حتى نكون قد انتهينا إلى بني وركان .

ثم يعرج بنا على القرية وينبئ بنا عند دار العمدة ونترل من هذه الدار أحسن مترل . وإني لشديدة الرغبة في أن أنفق الليل حيث أنا ، وإن أختي لتشاركني في هذه الرغبة ، ولكن خالنا قد أزعج المسير مع الليل ولم تراجع أمنا ولم تمتنع عليه ، ولم يستطع مضيفنا أن يشبه عما اعترم ؟ وسنا كنا نحن نأخذ حظنا من الراحة بعد أن أصبنا بما قدم إلينا من طعام كان خالنا قد خرج من القرية يريد فيما زعم أن يلم ببعض من كان يعرف في قرية محاورة ، فيغيب عنا ساعة وساعة وساعة ، ويقبل الليل ويسط ظلمته بسطاً ، ونكاد نستئس من استئناف السفر ونكاد نعلمن إلى البقاء حتى يسفر الصبح .

ولكن هذا خالنا قد أقبل ، وهذا صوته الغليظ القاطع يرتفع بالنداء

إلى الرحيل . وما نحن أولاء نستجيب لندائه ، وهؤلاء أهل الدار ينكرون عليه هذا السفر حين يقيم الناس وهذا الاضطراب حين يسكن الناس ، ولكن خالنا إذا عزم أمضى . وما هي إلا ساعة أو نحو ساعة حتى كان الجمعان قد دفعوا بنا دفعاً إلى الطريق العامة وقد أسدل الليل أستاره من حولنا إسدالاً ، وقد نامت الحياة وخلت الحقول وسكن كل شيء ، وانقطعت الأصوات ، إلا هذه التي تأتينا من بعيد بين حين وحين فتنبئنا ، فإذا هي أصوات الكلاب تنبح في القرى البعيدة ، وإلا هذه الأصوات اليسيرة الخفيفة المختلفة المتصلة التي تحيط بنا وتمتدح بسكون الليل امتزاجاً فتحدث شيئاً من الموسيقى الرائعة المروعة معاً ، وهي أصوات الحشرات والضفادع المنبهة في الحقول وعلى شواطئ الأقبية .

وربما وصل إلينا من حين إلى حين صوت بعيد يأتينا من يمن أو من شمال فتكره ونرتاح له وهو نداء بعض الطير ولعله نداء اليوم ، وربما ارتفع صوت خالنا ببعض غناء البدو فرجع ترجيحاً جميلاً غيماً معاً ، ولكنه لا يتصل إلا قليلاً ثم ينقطع ، ويمضي خالنا في حديثه مع أمنا ، أو يفرق خالنا وتفرق أمنا في الصنمت العميق ، وأنا وأختي نسمع لهذا كله ونحدث في شيء من الحمس الخائف الوحل كأنما نقر من شيء نخافه أو تقدم على شيء نخشاه . ومن يلدي ، لعنا كنا ننتظر ظهور الأشباح الحمراء ، ونشفق من أن نراهم لنا وتمثل أمامنا وتكرهنا على أن نتحدث إنهما أو نتحدث عنها ، والجمالان يسعيان بنا سعيّاً فيه إسماع ولكنه إسماع لا يكاد يحس ، وكأنهما مثلنا يفران من بعض ما يكرهان فهما يمدان في السعي ! وسكون الليل يثقل شيئاً فشيئاً ، وظلمة الليل تزداد كثافة

من حين إلى حين ، ونفوسنا تريد أن نهم في هذا السكون وتختلط بهذه الظلمة وتود لو احتواها النوم ، ولكن أنى لها أن نهم في سكون الليل وهي مضطربة وأنى لها أن تختلط بظلمة الليل وفي جنباتها هذه الأنوار الضيئة الشاحبة أنوار التفكير في غد والتذكر لأمس ، والرؤية فيما نحن فيه ؟ ! وأنى لها أن تنام وهذه بنات الليل قد أخذت تظهر شيئاً فشيئاً وتدنو منا قليلاً قليلاً ، وتثير فينا هذا الإشفاق البغيض الذي لا يستطيع أن يكون أمناً ولا يبلغ أن يكون خوفاً صريحاً ، وإنما هو قلق خفي ماكر يفسد من حوله كل شيء ؟ ! ونحن نريد أن نقاوم بنات الليل هذه فنغمض أبصارنا حتى لا نراها . ونسد آذاننا حتى لا نحس قربها منا ! والحملان يسميان في جد ونشاط لا يكاد يأخذ منهما الفتور . ثم يرتفع صوت خالنا غليظاً خفيفاً ، كله شر وكله نكر وكله نذير : هنا يجب أن نزل . وما هي إلا أن ينام الحملان ولم تستطع واحدة منا أن تقول حرفاً أو أن تتطرق بكلمة أو أن تفكر في شيء ، وإنما هو ذهول غريب كثيف قد أطبق علينا وملأ نفوسنا كما أطبق علينا وملأت نفوسنا ظلمة الليل . وهذا خالنا قائم كالشيطان ، وهو يأمرنا في غلظة وعنف أن نزل فلن يمضي الحملان أمامها قيد أصبع .

وها نحن أولاء نزل مضطربات ، ونسعى متعثرات ، وهذه أمنا تريد أن تسأل فيم إناخة الحملين ، وفيم النزول في غير منزل ، وها أنا هذه أريد أن أقول شيئاً ولكني لا أكاد أدير لساني في في ، ولا أكاد أستوعب ما كانت أمنا تقول ؛ إنما هي صيحة منكورة مروعة تنبعث في الجو ، وجسم ثقيل متهالك يسقط على الأرض ، وإذا أخفى قد صرعت وإذا

خالنا هو الذي صرعا لأنه أغمد خنجره في صدرها . ونحن عاكفتان على هذا الجسم الصريع يضطرب ويتخبط ويتفجر منه الدم في قوة كما يتفجر الماء من ينبوع . ونحن عاكفتان في ذهول وغفلة وبله ، لم نفهم شيئاً ولم نقل شيئاً ولم نتنظر شيئاً ، وإنما أخذنا على غرة أخذاً واختطفنا هنادى من بيتنا اختطافاً ، وجسمها يضطرب ويتخبط ودمها يتفجر ولسانها يضطرب ببعض الحديث في قفاها ، ثم يبدأ الجسم المضطرب ، ويسكن اللسان المتحرك . ويخف تفجر الدم ، ويمتلئ الجو حولنا بهذا السكون الأليم سكون الموت . ونحن فيما نحن فيه من ذهول وغفلة وبله ، وخالنا قائم أمامنا كالشيطان إلا أنه قد أخذ هذا الذهول كما أخذنا . . .

وهذا نداءك أيها الطائر العزيز يبلغني من بعيد ، وهذا صوتك يدنو إلى قليلاً قليلاً ، وهذا غناؤك ينتشر في الجو كأنه النور المشرق قد أظهر لنا ما كان يغمرنا من المول دون أن نراه . وها أنت ذا تبعث صيحاتك بتلو بعضها بعضاً ، كأنما هي سهام من نور قد تلاحقت مسرعة في هذه الظلمة فطردت عن نفسي ذهولها وجلت عنها غفلتها وأيقظتها من هذا البله ، وجلت لها الجريئة منكورة بشعة ، والمجرم آثماً بغيضاً ، والصيحة صريعة مضرجة بالدماء . . .

إن صوتك لم يوقظني وحدي وإنما أيقظ أمنا فما هي هذه تفيق وها هي هذه تسأل أخاها : أو فعلتها يا ناصر ؟ ! وها هي هذه تفرق في بكائها السخيف بكاء الأنثى المستلعة التي لا تملك حولاً ولا طولاً إلا صفح الدموع . ويلك أيها البائسة ! إنك تستطيعين أن تسفحي د عك إلى آخر الدهر فلن تغسلي قطرة من هذا الدم الذكي . ويلك أيها الأم

الآثمة ! إنك لن تستطيعي أن تردى نفسك إلى البراءة والأمن .

نعم ! إن صوتك أيها الطائر العزيز قد أيقظني وأيقظ هذه الأم المجرمة التي سفكت دم ابنها بيد أخيها ، وأيقظ هذا المجرم فنبهه إلى أن جريمته يجب أن تخفى وإلى أن آثار إثمه يجب أن تترك . وأنت لم يوقظ هنادى وما كان ينبغي له أن يوقظها لأن صوتك مهما يقو ومهما يلح فلن يستطيع أن ينفذ من أستار الموت . إنك لترسل صيحاتك متصلة متلاحقة وإلى الأنشطة مثلك للصباح ، وإن صوتينا ليملآن الفضاء العريض من حولنا ، ولكنهما لا يصرفان هذه المرأة عن بكائها السخيف ، ولكنهما لا يصرفان هذا الرجل عما هو مقبل عليه من إخفاء هذا الجسم في هذه الحفرة التي لم يفارقنا آخر النهار إلا لبيثها .

لقد تمت الجريمة وبلغ الكتاب أجله ، واستفدت هنادى حظها من الحياة ، وماتت لأن شاباً آثماً أغواها ولأنها لم تحسن أن تدفع عن نفسها غوايته .

إن صوتك لينبعث في الفضاء مستغيثاً وليس من يغيث ، وإن صوتي لينبعث في الفضاء داعياً وليس من يجيب ، وإن هذا الرجل المجرم ليفرغ من إخفاء جريمته ويحو آثارها ثم يلتفت إلى هذه المرأة وإلى ويقول في صوت متهدج فيه الرعب وفيه الخوف وفيه النذير : هلم فقد آن أن نرتحل . فإذا أبطأنا عليه ردد هذه الكلمات في صوت أشد ترويعاً وأكثر امتلاءً بالنذير . ثم يمثل أمامنا ويقول :

تعلمان والله أن هنادى ذهبت مع من ذهب من أهل المدينة بهذا الوباء الذي ألم بها منذ أسابيع !

أما أنا فقد انقطع عني صوتك أيها الطائر العزيز قليلاً قليلاً ، وانقطع عني صوت خالي ، ثم انقطعت عني الأشياء كلها أو انسلت من الأشياء كلها ، وإني لأراني أمرض في بيت خشن حقير .

١١

متى بلغت هذا البيت ؟ وكيف بلغت ؟ وأي طريق سلكت إليه ؟ وكم من يوم أو كم من أسبوع لبثت فيه ؟ وكم من يوم أو من أسبوع احتملت أثقال هذا المرض الذي أخذت غمراته تنجلي عني لحظات في كل يوم ثم لا تلبث أن تتابع وتراكم ويركب بعضها بعضاً وتأخذني من كل وجه فأجهل نفسي وأجهل من حولي : كل شيء وكل إنسان ، ولا أحس ولا أرى حين أغرق فيها وحين أخرج منها إلا هذه الصورة المنكرة البشعة التي لا أذكرها الآن ولم أذكرها قط إلا جرت في جسمي رعدة عنيفة مؤلمة وأخذت نفسي اضطراب لا حد له ؟

أسئلة ألقىتها على نفسي ألف مرة ومرة ، وسألتها على نفسي ألف مرة ومرة : فلم أظفر ولن أظفر لها بجواب . وإنما أذكر صوتك أيها الطائر العزيز وهو ينحف في أذني ، ويرفئ قليلاً قليلاً كأنه صوت المودع يبلغ المسافر والقطار يبعد به عنه شيئاً فشيئاً . إنما أذكر ذلك الصوت البشع المجرم صوت خالنا الآثم وهو يتهدج ويبعد عني شيئاً فشيئاً في ثقل وبغض واشمئزاز . إنما أرى قطعة من الليل تسعى إلى سعيها هادئاً أول الأمر ولكنها

تسرع شيئاً فشيئاً ، وهذه الظلمات تتكاثف من حولي كأنها الأمواج العظام ، وهذه الأصوات تنقطع وتبعد ، وهأنا هذه يغمرني الموج وأدخل في الليل فلا أحس شيئاً ولا أرى شيئاً ولا أشعر بشيء ، يا له من نوم عميق طويل ! إن الأحلام قد ألحّت عليه ، فهي تروّعني فيه ترويعاً متصلاً ليس إلى انقطاعه من سبيل .

أكنت نائمة ؟ أكنت مستيقظة ؟ أكنت مريضة ؟ أكنت صحيحة ؟ أكنت عاقلة ؟ أكنت ذاهلة ؟ لا أدري ، إنما أعلم أنني كنت شاعرة شعوراً غامضاً ولكنه قوي ملح كأنني قد أقمت إلى ينبوع يتفجر أمامي من الأرض في مكان رحب ، بعيد الآفاق لا يقوم فيه شيء ، ولا تقع العين فيه إلا على هذا ينبوع وعلى ظل مقيم عنده لا يريم ، وعلى ظلال أخرى تجيء كأنما أقبلت ترور هذا الظل ، فهي تلم به حيناً وكأنما تتاجيه وكأنه يسمع منها وكأنه يرد عليها ، وكأنني أسمع نجوى هذه الظلال ولكني لا أحقق ما أسمع ، وكأنني أفهم نجوى هذه الظلال ولكني لا أتبين ما أفهم . . . وأنا جامدة هاملة لا أحس ولا أرى إلا هذا ينبوع الذي يتفجر في غير انقطاع ، وهذا الظل الذي لا يتحول عنه وهذه الظلال التي تغشاه بين حين وحين . يا له من ينبوع كريحه أود لو أحول عيني عنه ، ولكن حرته تجتذب عيني إليه اجتذاباً ! إنه لينبوع غزير ، ولكنه لا يتفجر منه الماء ، وإنما يتفجر منه الدماء . يا له من ظل حزين كتيب شاحب مشرف في الشجوب أحاول أن أغمض عيني وأن أغلق نفسي فلا أحس له محضراً ، ولكن شجوبه يستهوي نفسي ولكن حزنه يمزق قلبي ولكن انحناءه على هذا ينبوع يملؤني لوعة وروعة

وابتناساً ! يا لها من ظلال تذهب وتجيء هادئة لا تكاد تشعر ولكن في حركاتها ما يملأ النفس جزعاً وهلعاً ! ما لي لا أثبت عيني في هذا الظل المقيم ، وما لي لا أثبت عيني في هذه الظلال المضطربة التي تذهب وتجيء ؟ أنا نائمة أنا أم مستيقظة ؟ أعاقلة أنا أم ذاهلة ؟ أليست أتبين في هذا الظل المقيم ملامح أخوتي فما لها إذن لا تكلمني . . . وما لها إذن لا تدعوني . . . وما لها إذن لا تتاجيني ؟ لقد عرفتها محبة لي واثقة بي مطمئنة إلى ، فما لها لا تظهر لي شيئاً من هذا الحب ، ولا تبدي لي شيئاً من هذه الثقة ، ولا تبين لي عن شيء من هذا الاطمئنان ؟ إنما هي مكبة على هذا ينبوع تنظر فيه كما تنظر الفتاة الجميلة في المرأة . هم تبحث في هذا ينبوع ؟ أتراها تلمس صورتها في هذا الدم المتدفق ؟ وما لها لا تكلمني ، أليست ترائي ؟ ما لها لا تجيبني ، أليست تسمعي ؟ ما لها لا ترق لي ولا تعطف علي ؟ أليست تسمع هذا النداء الذي ينبعث من فمي باسمها في صيحات قوية عذيفة متلاحقة ؟ ! إني لأسمع هذه الصيحات ولكني لا أرى من أخوتي أنها تسمعها ، وكأن هذه الصيحات تخيفها وترعبها ! فهذا ظلها يستحق وتستحق معه الظلال الأخرى ، ويستحق معها ينبوع الأحمر ، وهؤلاء أشخاص آخرون يسرعون إلى ويدنون مني ويستجيئون لي ، فلا أكاد أنظر إليهم حتى أتبينهم ، ثم أخافهم ، ثم أبغضهم ، ثم أقتي محضهم بالصمت والهدوء . . . إنهم أهل الدار قد سمعوا صياحي فأقبلوا يرفقون بي ويسألوني عما أجده .

إنهم أهل الدار ، وما أشد بغضي لأهل الدار . إني لأرى بينهم أياً وإني لأكره أن أرى أياً . كلا ! لأكف عن هذا الصياح لعل

أهل الدار أن ينصرفوا عني فيجنبوني محضهم الكريه؛ إني لأخذ نفسي بالصمت وأكره نفسي على الهدوء، وما هي إلا لحظات صامتة هادئة حتى يسدل ستار ويرفع ستار. وهذا ينبوع الأحمر يتفجر من الأرض قوياً غزيراً، وهذا ظل أختي ما كنا لا يريم، وهذه الظلال تذهب من حوله وتجيء. إن لي بهذه الظلال لعهداً، لقد رأيتها ولقد سمعت عنها حديثاً، لقد حدثني عنها أختي في تلك الليلة التي قضيناها مروعتين حين أقبل خالنا يدعونا إلى سفره الآثم.

نعم إن لي بهذه الظلال الحمراء ظلال مرتا وأمينه وملزمة تلك التي كانت تراءى لنا فتملأ قلب أختي فرقاً وهدماً وروعاً... إن لي بهذه الظلال لعهداً وإني لأعرفها وإني لأفهم الآن إلحاحها بالزيارة على هذا الظل المقيم. لقد أقبلت تحييه وتواسيه وتبته ما وجدت من ألم وحزن، وتسمع منه ما وجد من شقاء وبؤس. إن نجوى الظلال لغريبة... ليتني استطعت أن أفهمها، ليتني استطعت أن أستحيل ظلاً فأفهم حديث الظلال! ما بال أختي لا تناجيني، أتراها لا تحس محضري، أم تراها لا تعرف كيف تتحدث إلي أو تفهم عني؟ أتغير لغة الناس إذا ماتوا؟ لقد حدثونا أن للموتى حديثاً يلقونه إلى الأحياء فيفهمه عنهم الأحياء...

إني لأعرف هذه الظلال. لقد كنت في ضلال إذن حين كنت أزعج لأختي في بعض الطريق أن الأشباح بنات الليل، وأنها تكبره ضوء النهار ولا تستطيع أن تظهر فيه؛ والظلال ملحة في المثل أماني لا يصرفها عني مطلع النهار ولا يصرفها عني مقدم الليل. إن الظلال إذن لا تناب نوراً ولا تألف ظلمة، ولعلها لا تعرف نوراً ولا ظلمة وإنما نحن يغشينا

ضوء النهار فلا يرى الظلال التي تحيط بنا وتضطرب من حولنا وترى كل ما نأتي وتسمع كل ما نقول. ولعلها ترثي لنا، ولعلها تسخر منا، ولعلها لا تفهم عنا شيئاً كما أننا لا نفهم عنها شيئاً. يا للهول إن تدفق ينبوع ليشتد، وإن الدم لينتشر من حوله انتشاراً، وإن الحمرة لتصبغ كل شيء من حولي، وإن هذه الظلال لتدنو مني كأنها قد عرفتني وكأنها تريد أن تقبلني! يا للهول، إن الروح ليماً قلبي، وإن الصياح ليتفجر من فمي فيملأ الجو من حولي كما يتفجر الدم من ينبوع فيصبغ الأرض بحمرته، وإن أهل الدار ليقبلون على، منهم الجزع، ومنهم المطمئن، وهم يرفقون بي ويعطفون علي...

وهذه أمي، يا للهول! ما أسمع هذا الوجه وما أقبح هذه الصورة وما أشد بغضي لهذا المحضر! إنها لتدنو مني وإن الدم ليجمد في عروقي لمقدمها. إنها لتضع على رأسي خرقه مبللة وإني لأجد لبرد الماء شيئاً من الراحة، ولكن لينصرف عني هذا الوجه فأني أكره أن أراه، لترد عني هذه المرأة فأني لأخشى أن تقتلني... وكيف أخلص منها وكيف آمن محضرها إلا إذا آويت إلى الصمت ولجأت إلى الهدوء؟ إنه لعذاب أليم هذه الحياة بين ينبوع الأحمر والظلال المطيفة به إن آثرت الهدوء، وبين أهل الدار وهذه المرأة البغيضة إن آثرت الصياح. أليس لي سبيل إلى الراحة من هذا العناء؟ ما أكثر ما طلبت وألححت في طلبها، وما أكثر ما فرت مني وامتنعت علي، وما أكثر ما غيل إلى أني أجري في إثر شيء أتمناه أشد التمني وأحرص عليه أعظم الحرص وأجد في طلبه كل الجهد، حتى إذا بلغته أو كدت أبلغه كانت منه وثبة فإذا المسافة بيني

وبينه واسعة وإذا الأمد بينه وبينى بعيد ، وإذا أنا معذبة أشد العذاب
بالاضطراب الملح المضنى بين وجوه أهل الدار التى أكرهها ، وهذه الظلال
التي يؤذيني منظرها ويثير في نفسي ألماً لا آخر له . . .

ولكنني أستقبل النهار ذات يوم هادئة النفس مستريحة الجسم ،
قد ألح الضعف على فما أكاد أتحرك . على أني أجد في هذا الضعف
نفسه دعة وأمناً فاستعذبه وأستلذه وأستسلم له استسلاماً ، وأجد في نفسي
دهشاً لذيلاً حلواً لأنني أفتقد شيئاً كنت أخاف أن أجده ، أفتقده افتقاد
السعيد بالنجاة من شر يخشاه . فقد يخيل إلى أن قد بعد العهد بيني
وبين الظلال والينبوع ووجوه أهل الدار ، وأنني قد قضيت وقتاً غير
قصير لم أر حرة الينبوع ولم أشهد اضطراب الظلال ولم يرتفع صوتي
بالصياح ولم يسرع إلى أهل الدار . ثم لا أكاد أتمثل هذا كله حتى
أجتهد ما استطعت في أن أذود هذه الخواطر عن نفسي مخافة أن يطول
تفكيري فيها فيكون ذلك استحضاراً لما أتمثله من الهول ، ودعاءً لما أجد
من السعادة في الإفلات منه ، ورفعاً للستار عن الينبوع الذي منه ينفجر الدم
والذي تطيف به الظلال . فأنا أذود هذه الخواطر عن نفسي ، وأستسلم
لهذا الضعف الذي أجده ، وأود لو بقيت كما أنا هاملة خامدة لا أقدر
على شيء حتى على التفكير ، ولكن هذه هي أمي تدنو مني وعلى وجهها الكتيب
شيء من آيات الرضا ، وهي تقول لي في هذا الصوت الذي يخيل إلى
أنني لم أسمع منذ زمن بعيد : لقد نمت الليلة كلها يا آمنة ، فأنت بارئة ،
وما أرى إلا أنك سنسرعين نحو الشفاء . لينها لم تقبل علي ، ولينها لم
تدن مني ، ولينها لم تتحدث إلي ! فقد اقشعر لقربها بدائي كله ،
واضطربت نفسي كلها ، وأخذت غشاوة غريبة تلقى على عيني ، وأخذت

الأشياء تضطرب من حول اضطراباً وآذاني هذا كله أشد الإيذاء حتى
كدت أصبح لولا أني حبست صيحتي في حلقى ولكن لم أستطع أن
أمسك يدي وأن أمنعهما عن أن ترتفعا إلى عيني لتردا عنهما منظر هذه
الأشياء الراقصة ، وظنت الأم البائسة أني ألقها فولت باكبة ، ووجدت
في انصرافها عني سروراً وراحة ورضاً .

ولا بد مما ليس منه بد ، فلم يكن سبيل إلى أن تمتنع أمي عن عيادتي
والعناية بي ، ولم يكن سبيل إلى أن أرفض لقاءها وأخلص من محضرها ،
ولم يكن بد من أن تنظر إلي وأنظر إليها ومن أن تتحدث إلي وأسمع منها
وأرد عليها رجع الحديث ؛ ولم يكن ذلك دون أن يثير في نفسي من الموجدة
والغبط ما كان يردني أحياناً إلى بعض ما كنت فيه ؛ ولم يكن ذلك دون
أن يثير في نفس هذه المرأة البائسة آلاماً إلى آلام وشقاء إلى شقاء فترسل
عبراتها حيناً وتهدأ حيناً آخر ، وربما أثار في نفسها غضباً تجتهد
في حبه أن ينفجر . وأنا أدنو إلى البرء وأستزيد من القوة وأسترد النشاط
قليلاً قليلاً ، وآتي بعض الحركات اليسيرة فأجلس وقد كنت لا أستطيع
الانتقال ، ثم تثوب الحياة إلى في قوة كأنما كان بينها وبينى سد ، فلما
أزبل أخذت تغمرني من كل وجه ، وإذا أنا أنهض وأسعى ، وإذا
أنا أسترده حظاً من القوة غير قليل وأجد رغبة في كل شيء إلا في الحديث .
وأني تدور حولي وتتلطف لي وتغلو في العناية بي ، وتود لو تجد إلى
نفسي سبيلاً ، وتتفق جهوداً مشيرة للرثاء تريد بها أن تصل أسباب الحديث
بينها وبينى ، ولكنها لا تصل مما تريد إلى شيء ، وقد ألقى بين نفسيها
ونفسي سور صفيق فهما لا يلتقيان . ومع ذلك فإن خاطراً من الخواطر

كان يتردد في نفسى تردداً لا يكاد ينقطع وكنت أدافعه دفاعاً متصلاً
 لأنى كنت أجد في اضطراب نفسى به ألماً فيه الخوف والرعب وفيه البغض
 والحقد . فقد كنت أسأل نفسى وأريد أن أسأل أى أو أن أسأل بعض
 من حولى عن حالنا ذلك الشيطان الآثم المريد : أين هو وأين استقرت به
 الدار ؟ فما أذكر أن صورته البغيضة تمثلت لى فيما كان يتمثل لى من
 الصور أثناء العلة ، وما أذكر أنى سمعت له ذكراً أو عرفت من أمره
 خبراً منذ أخذ البرء يسمى إلى ويدب في أعضائى ، وما أذكر أن أحداً من
 أهل الدار قد أشار إليه أو ألم بالحديث عنه منذ أخذت أخالط أهل
 الدار وأشترك معهم في بعض شؤون الحياة . وكنت مع ذلك أراد أن
 أعرف من أمره بعض الشيء ، أو أكره أن أعرف من أمره بعض الشيء ،
 أحي هو أم ميت ؟ أأفكت بجرمته أم أخذه السلطان ؟ أمقيم هو في القرية أم
 ذهب في الأرض يلتمس مأمنه بعد الإثم وراء هضبة من هذه الهضاب ؟
 ما أكثر ما ترددت في نفسى هذه الأسئلة وما أكثر ما جاش بها
 صدرى وما أكثر ما هم لسانى أن ينطق بها ، ولكنى كنت أحبسها في
 ضميرى حبساً خوفاً منها وبغضاً لهذا الرجل الأثم . على أنى لم أستطع
 ذات صباح أن أملك من أمرى ما تعودت أن أملكه فسألت أى وقد
 خلوت إليها ، سألتها وأنا أكاد ألوى وجهى عنها : أين هو ؟ وما أسرع
 ما فهمت عنى ، وما أسرع ما أجابتنى وهى تشير إلى بالصمت : لقد
 ذهب إلى الواحات فيمن ذهب . قالت ذلك وانهمرت دموعها غزيرة
 سخينة ، ولكن بكاءها لم يدع بكائى وحزنها لم يثر حزنى فقد كان بين
 نفسها وبينى سور صفيق . لقد ذهب إلى الواحات فيمن ذهب . . .

فلم يأخذه السلطان إذن ولم يهرب ملتصقاً بمأمنه وراء هضبة من هذه
 الهضاب ، وإنما ذهب إلى الواحات فيمن ذهب من أهل القرية ومن
 أهل القرى المجاورة يحملون إلى أهلها ثمرات الريف ويحملون إلى أهل
 الريف ثمرات الواحات . لقد ذهب إلى الواحات فيمن ذهب وكانت
 نفسه هادئة ، وكان ضميره مطمئناً ، وكان قد نسي إثمه نسياناً ، وكان
 قد أنجلي عنه هذا الذهول الذى غشيه بعد أن سوى الأرض على ضحيته .
 ولم تمثل له هذه الصور المروعة التى تمثل لى ، ولم تنهكه هذه
 الحمى التى أنهكتنى ، وإنما ذهب إلى الواحات فيمن ذهب يبيع
 ويشترى ، ويتحدث مع رفاقه إذا تحدثوا ، ويلهو مع رفاقه إذا لخوا ،
 كأنه لم يأت شيئاً ولم يقترف إثماً ولم يسفك دم ابنة أخته بيده . . .
 ذهب إلى الواحات فيمن ذهب ، وسيعود من الواحات فيمن يعود ،
 يحمل وجهه البغيض ونفسه المحرمة وضميره الآثم ، ويحمل مع هذا كله
 تجارة قد ترتضيه وقد ترتضى أهل هذه الدار . وسيلقونه مغتبطين ببقائه ،
 وسيلقاهم سعيداً بالعودة إليهم لا بحس ألماً ولا ندماً ، سيرتفع صباح
 الفرح لمقدمه في هذه الدار ، سيرتفع صباح الفرح في القرية كلها
 لمقدم العائدين معه من أهل القرية ، وسيقضى الناس هنا أياماً كلها
 أعياد يملؤها السرور والحبور . أما أنت أيتها الأخت النعسة البائسة فلن
 يذكرك في هذه الدار أحد إلا هذه المرأة التى لا تستطيع أن تذكرك إلا سرّاً بينها
 وبين نفسها ، وإلا هذه الفتاة التى لا تكاد تفكر فيك حتى يترأى لها
 اليبسوع الأحمر والظلال المطيفة به في ذلك الفضاء العريض فتشفق من الجنون . !
 ذهب إلى الواحات فيمن ذهب وسيعود من الواحات فيمن يعود . . .

حرام على أن أراه ، وحرام على أن أشهد ما سيثير مقدمه من الفرح والابتهاج . إني لعاجزة عن لقائه ، وإني لخليفة إن لقيته أن أفصح من أمره ومن أمرنا ما يريد أن يكون سرّاً . أليست هنادى قد ذهبت مع من ذهب من أهل المدينة بذلك الوباء ؟ !

وأشرق الشمس ذات يوم على أهل الدار وارتفع الضحى ، واقتصد أهل الدار آمنة فلم يجدوها ، ولو أنهم افتقدوها في القرية كلها لما وجدوها فقد كانت آمنة في بعض الطريق قد عبرت البحر مصوبةً نحو الشرق . . .

١٢

وإني لأراها في طريقها نحو الشرق فيمتلئ قلبي رحمة لها وإعجاباً بها وخوفاً عليها . وأي قلب لا يرحم فتاة غرة لم تكد تتجاوز سن الصبا وقد قذفت بها الأحداث في بلحة الحياة الممتلئة بالخطوب والأهوال ، وهي وحيدة ليس لها عون ، قد صفرت يدها من كل شيء ، وفرغ قلبها إلا من هذا الحزن اللاذع الذي يفعمه إفعاماً ، وعجزت نفسها حتى عن الأمل ، فهي قد فرت من بيت أسرتها فراراً ، لا تريد شيئاً إلا أن تخلص من هذه البيئة التي لم تكن تستطيع فيها مقاماً ، وتفلت من هذا الشيطان المرید الذي كانت توشك أن تلقاه إن أقامت أياماً .

وأي قلب لا يعجب بهذه الفتاة الغرة التي لم تكد تتجاوز الصبا ، والتي فرت من أهلها فهي تسعى لا تلوى على شيء ، نجيلة هزيلة ، بائسة كثيبة لا تدري أين ينتهي بها المسير ، ولا تعرف كيف يتاح لها

القوت ، بل لا تفكر في شيء من هذا ، وإنما تمضي أمامها مسرعة في المضي يدفعها عزم لا يعرف الكلل ، وبغض للشر لا هوادة فيه ، وثقة بالعدل لا حد لها .

وأي قلب لا يخاف على فتاة غرة لم تتجاوز الصبا تسعى وحدها في الطريق العامة إلى غير غاية ، وقد صحبها الفقر والحاجة والضعف وحدانة السن وشيء من جمال يغري بها كل غوى ، وبطمع فيها كل مفسد ، وما أكثر الغواة والمفسدين في هذه الطريق العامة التي تستقيم وتلتوى بين قرى الريف ! لك الله أيها الفتاة الناشئة ! إلى أين تذهبين ؟ ألم تفكري في هذه

الكوارث والخطوب التي تضمهرها الحياة للضعفاء والباثسين ، وللضعيفات والباثسات خاصة ، وتكشف عنها شيئاً فشيئاً فإذا هي مصدر نخصب للشر والضر ، وينبوع غزير للسيئات والآثام ؟ ألم تفكري في هذه الأقاصيص التي كان يمتلئ بها صباك والتي كانت تسلي نهارك وتروع ليلك ، والتي كانت تمتلئ بأحاديث الأغوال وقد نفرقوا على الطريق يعترضون المار حين يمر بهم وقد انقطعت به السبيل فإذا هم بضمرون له الهول كل الهول ، ويسرون له البغض كل البغض ، وإذا هم لا يكادون يتنسمون ريحه وقد أقبل من بعيد حتى يتحلب ريقهم قرماً إلى لحمه وعظمه ، وحتى تضطرم في أجوافهم غلّة لا يرونها إلا دمه ، وهو يبلغهم خائفاً وجلاً قد ملأ الخزع قلبه وفرق الهلع نفسه ، فإن كان قد حفظ الوصية ووعى النصيحة واستعد للقاء الغول ابتأسه بالسلام فقلّم أظفاره واضطره إلى السلم والمودعة ، وإن لم يكن قد حفظ ولا وعى ولا هياً نفسه للقاء الخطوب مر بالغول فالتقمه التقيماً والنهمه التهاماً ، وقطع الوسائل

بينه وبين من ترك وراءه ومن كان يعضى للقائم أمامه . . . ؟

ماذا أعددت يا آمنة لهؤلاء الأغوال فإنهم منبثون في الطريق ؟
ليسوا سبعة كما كانت تتحدث إليك القصص ولكنهم سبعون ، بل
أكثر من سبعين ، بل مئة ، بل مئاة قد انتثروا في الطريق ، منهم من
جلس ينتظر الفريسة ومنهم من مضى يبتغيها ، منهم من برز ضاحياً
ومنهم من استخفى في الحقول واختبأ في المزارع ، منهم من يظهر مظهر
الغول كريهاً خيفاً لا يكاد تبلغه العين حتى يمتلى القلب منه فرقاً وحتى
تندفع الفريزة إلى اتقائه ومحاولة اجتنابه والخلاص منه ، ومنهم من يظهر
مظهر الرجل الوديع أو الشاب الرفيق تبلغه العين فيطمئن إليه القلب ،
وتأنس إليه النفس بعد وحشتها ، ثم لا يجد منه إلا اللاجئ إليه إلا غداً
ولا يظفر عنده الوثاق به إلا بالشر والنكر والبوار . منهم من اتخذ زى
الرجل ، ومنهم من اتخذ زى المرأة ، وكلهم غول قد هيأته الأحداث
لأمثالك من الفتيات الضعيفات البائسات اللاتي تبتعن الأسرة أو
اجتنهن الخطوب من أصولهن فهن مشردات يستقبلن الحياة جاهلات
بها غافلات عنها ، والحياة تلعب بهن ، تقذفهن من مكان إلى مكان ،
وتنقلهن من شر إلى شر ، حتى ينتهي بهن القضاء إلى الغول الظاهر أو إلى
الغول المتنكر ، فإذا من فريسة لهذا أو لذلك ، يلقين العار والحزى ،
ويلقين البؤس والضميم ، ويلقين المرض والشقاء ، ويلقين الألم دائماً ،
وقد يلقين الموت أحياناً . . . ! ؟

لم يفكر آمنة في شيء من هذا حين انطلقت مع الصباح من بيت
أسرتها كما ينطلق السهم ، ومضت أمامها مندفعة لا تحس جهداً ولا مشقة ،

بل لا تحس حركة ولا نشاطاً ، بل لا تشعر بأنها تمضي كما يمضي السهم
لأنها لم تكن تفكر إلا في سجن قد أغلقت منه وهي تريد أن تبعد عنه ،
وفي حرية قد دفعت إليها وهي تريد أن تنغمس فيها انغماساً .

فهي تمضي وتمضي لا تقف ولا تلتفت عن يمين ولا شمال ولا تلتفت
إلى وراء ، كأنها بطل من أبطال هذه القصص التي تتحدث بها الجذبات
والأمهات ، قد مضى لغايته ووعي نصيحة الناصح ، فهو لا يلتفت
مخافة أن يدركه البوار إن حول وجهه عن طريقه المستقيمة أمامه ، والفتاة
تسعى مسرعة تستقبل بوجهها المشرق الكتيب وجسمها الضئيل النشط
ضوء الشمس ونسيم الصبح واستيقاظ الحياة والأحياء ، وما تزال كذلك
حتى يغمرها الضحى وحتى تغمرها الحياة التي تشطت من حولها ، وإنما
هي مضطرة بحكم الفريزة وبحكم هذا الإعياء الذي أخذ يدرك جسمها
الضعيف شيئاً فشيئاً إلى أن تمضي مبطة وتسمى هوناً . ولا يكاد يتصف
النهار حتى تبلغ البحر وحتى تعبره ، ولا يكاد يتقدم النهار نحو العصر
حتى تكون قد بلغت مأمنها وأفلتت من طلب الطالبين وانتهت إلى قرية
من القرى قالت إليها تريد أن تبلغ عند أهلها حظاً من راحة وشيئاً من
طمأنينة وأن تنفق عندهم الليل .

نعم إنى لأراني في هذه الطريق وحيدة شريدة لا أملك إلا نفسي
الضعيفة البائسة ، وإلا جسمي النحيل الضئيل ، وإلا ثياباً بالية أو كالبالية ،
وأنا مع ذلك لا أحفل بما تركت ولا بمن تركت ، ولا أسأل عما أنا
مقدمة عليه من الأمر ، ولا عن أنا مقبلة عليهم من الناس ، إنما هو
الخيام في الأرض والسكر بهذا الشراب الخطر الذي نسميه حب الحرية

والذى يكلفنا أحياناً من أمرنا شططاً . أكنت خائفة . . . ؟ أكنت
آمنة . . . ؟ لا أدري ! وإنما كنت أشعر بالأمرين جميعاً يتعاقبان على
قلبي كما يتعاقب الليل والنهار على الأرض وما عليها .

كنت أطمئن إلى أنى لن أرى أمى ولن أسمع صوتها . ولن أرى أهل
الدار وأشارهم فى شيء . ولن ألقى ذلك الرجل المجرم ذا النفس
الفاجرة والقلب الغليظ . ولن أخضع لغلظته ولن أحتمل تقربه إلى وترضيه لى ،
فيمتلئ قلبي أمناً وهنوعاً وتيسم لى الحياة عن أجل الصور وأحفلها
بالأمانى والآمال ، وأجد فى ذلك قوة وشجاعة وصبراً ، فأمضى لا يدركنى
الإعياء ولا ينالنى الكلال . ثم كنت أذكر أختى ولا سيما بعد أن عبرت
البحر وأخذت الطريق تخطط على ، وأخذت أحاول أن أعرف أين انحرف
بنا خالنا المجرم عن الجادة إلى ذلك الفضاء العريض الذى اقترف إثمه فيه .

كنت أذكر أختى فما أكاد أثير ذكرها حتى يثور ظلها أمامى وإذا أنا
أراها ماثلة ذاهلة كما تعودت أن أراها منذ تركنا المدينة ، وإذا أنا أهم
أن أسعى إليها وأن أمسها بيدي وأن آخذ معها فى الحديث ، وإذا أنا
أنتبه للخطب وأتبع الحقيقة الواقعة ، وإذا يتابع الحزن تنفجر فى قلبي
وإذا الحزن يجرى مع دمي ، وإذا جسمي كله نار مضطربة ولوعة محرقة ،
وإذا دموعي تنهمر على خدي ، وإذا أنا مضطربة إلى أن أنتبه
ناحية من الطريق لأبكي على مهل على غير مرأى من الناس .

ثم أنهض مستأنفة للسمي ، وإذا أختى تسيرنى ، وإذا الظلال التى
كنت أراها أثناء العلة تطيف بها وتطيف بى ، وإذا ظلال أخرى تملأ الفضاء
من حولى لا أدري أنجمت من الأرض أم هبطت من السماء ، ولكنى أراها
تكثر وتختلط وأسمعها من حولى تصخب وتلغظ حتى أخاف على نفسي الجنون .

أنا على ذلك كله ماضية تتقاذفى القرى وتندأشنى الضياع ،
أستضيف هؤلاء حيناً وأسأل هؤلاء حيناً آخر ، أعمل فى الحقول مرة وأعمل
فى البيوت مرة أخرى ، وهذان اللونان من الشعور يختلفان على قلبي
ويتعاقبان على نفسي لا يهلاثنى فى اليقظة ولا يهنياننى فى النوم ، أنا
مضطربة دائماً بين أهلى الذين فررت منهم فراراً ، وبين أختى وصاحباتها
اللاتى يستجبن لى كلما ذكرتهن كأنما يسمعن دعاء فيسرعن إلى الداعى .
وأنا ماضية أمامى أتقدم نحو الشرق من يوم إلى يوم ولى من غير شك
غاية أعرفها وأسعى إليها ، ولكنى لا أكاد أتمثلها ولا أستحضرها ، وإنما
أنا أطلبها غير شاعرة بها كأنما تدفعنى إليها الغريزة دفعاً .

أنا ماضية نحو الشرق ، لا أنحرف عن غائتى إلى يمين أو إلى شمال
إلا لأقضى ليلة فى هذه القرية أو لأستريح ساعات أو لأستريح يوماً
فى هذه القرية أو تلك ، ولكنى على جناح سفر دائماً ، متجهة نحو
الشرق دائماً ، ممعة فى الشعور بالأمن كلما ازدادت من الغاية دنواً ومن
المدينة قريباً . فالمدينة إذن هى غائتى من كل هذا السعى ، فيها أتمسك
الأمن ، وبين أهلها أتمسك الحياة الوادعة ! وبيت المأمور هو غائتى من
المدينة إليه ألتجأ وإلى من فيه أفرع وبمن فيه أستعين ، فى ظله أريد
أن أعيش : وعند أهله أريد أن أودع قلبي ، وعند خديجة من أهله
خاصة أريد أن أتمسك الراحة لهذه النفس المعذبة ، والشفاء لهذا القلب
المريض . لن آمن حتى أبلغ هذه الدار ، ولن أبل من على حتى أرى
هذه الوجوه وأسمع هذه الأصوات ، وأستأنف حياتى مع الخدم والسادة
كعهدها منذ أشهر قبل أن تأمرنا أمنا بذلك الرحيل المشنوم . إذا بلغت
هذه الدار فستفسر يد عالى دون أن تبلغنى : وإذا اطمأن بى المقام فى

هذه الدار فلم يبق الروح إلى نفسي سيلا . ولكن ما خطب أهل الدار وما خطبي إن سألوني أين كنت ؟ كيف أجيبهم ؟ . . . وجم أجيبهم ؟ أقص عليهم حديثي كله أم أطويه عنهم طياً ؟ بل ما خطب أهل الدار وما خطبي إن رأوني فأذكروني ثم أبوا أن يفتحوا لي بابهم وأن يلقوني بما أحب أن يلقوني به من الرضا والعطف والابتسام ؟ ما خطب خديجة وما خطبي إن رأني فأعرضت عني لأنها وجدت من فتيات الريف أو من فتيات المدينة من يقوم منها مقامى ويلهيا كما كنت ألهيا ، ويشاركها في الجدل واللعب ، كما كنت أشاركها في الجدل واللعب ؟ أين أذهب إذا نبت في هذه الدار ، وإلى من ألتجأ وعلى من أعول إذا تنكر لي أهل هذه الدار ؟

١٣

كلا ! بل هذه الدار كما عرفتها رشيقة أنيقة ، مغرية مطمعة ، لا ترد طارقاً ولا تعبد راغباً ، ولا تتجهم لزائر ولا تنبر بضيف . وإنى لأراها من بعيد فأسرع إليها الخطوة كأنما أدفع إليها دفعاً أو كأنما تدعوني ملحة فأمسجيب للدعاء . وإنى لأرى دخاناً يصدر عنها وينشر في البحر فلا أتمثل النار التي يصدر عنها في المطبخ وإنما أتمثل الطباخ ومن حوله من الخدم يذهبون ويحيثون وأسمع ما يقولون ، وكأنى أشاركهم فيما يأتون من حركة ، وأجاذبهم ما يلفظون به من حديث . وإنى لأدنو من الدار فأرى نافذة مفتوحة فلا أتمثل غرفة خديجة وما فيها من أداة وأثاث ، وإنما أتمثل خديجة نفسها قد جلست إلى بعض ما كانت تلعب به ، أو عكفت

على درس تستظهره أو كتاب تنظر فيه ، وكأنى أشاركها في اللعب أو أشاركها في الاستظهار أو أسمع بعض ما تقرأ . وإنى لأدنو من الدار فأتمثل حياة الدار كلها كأنها قد غمرتني وكأنى قد رجعت إلى مثل ما كنت منذ أشهر جزءاً من هذا الكل ، وشعاعاً منتشرأ مستفيضاً في هذه الحياة التي تملأ الدار حركة ونشاطاً واضطراباً .

وهأنذا هذه أبلغ باب الحديقة فلا أتردد في ولوجه ، وأمضى أمامي مصممة كأنما أعود إلى الدار بعد ليلة من تلك الليالي التي كنت أقضيها مع أمى وأختي في ذلك المنزل الصغير ، وإنى لأمضى كما تعودت مسرعة لا ألوى على شيء ، وإنى لأصعد في السلم لا ألتفت إلى يمين ولا إلى شمال ، وإنى لأبلغ غرفة خديجة فأدخلها وأصادف سيدتى وصديقتى عاكفة على كتاب تنظر فيه . ولكننا كنا نلتقى على الضحك والعبث فإنا الآن لا نضحك ولا نعبث . . . ١٢ أما هي فواحدة ذاهلة قد أخذت على غرفة ، وأما أنا فغرفة في البكاء .

ثم هي تسألني : أين كنت . . . ؟ ومن أين أقبلت . . . ؟ وماذا صنعت في هذا الوقت الطويل . . . ؟ وأنا لا أجيب . وأنى لي أن أجيب بغير هذه الدموع التي تنهمر ، وهذه الزفرات التي تنفجر ، وهذا الشهيق الذي يتردد في حلقى متصلاً ببعضه ببعض يزداد شدة وعنفاً حتى يكاد ينتهي بي إلى أزمة من هذه الأزمات التي تفسد أعصاب النساء حين يلح عليهن البكاء . . . ١

وسيدتى وصديقتى قد أقبلت على فتلطف لي وترقق بي ونهون علي بعض ما أجد ، وإن كانت لا تعرف شيئاً مما أجد . ثم يسمع

الشقيق وإذا سيدة البيت قد أقبلت ، وإذا هي ليست أقلّ دهشاً ولا وجوماً من ابنها ، ولكنها تصرف الفتاة عني صرفاً شفقة عليها من هذا المشهد الذي قد يؤذي نفسها الشابة الناشئة ، ثم تدعوني إلى أن أتبعها ، ثم تهدي روعي وتتلطف لي في الحديث وتساألني عن أمري فلا أجيبها بشيء ، أو لا أكاد أجيبها بشيء ، إنما هي جل منقطة غارقة في الدموع فيها ذكر للرحيل على غير موعد ، وفيها ذكر للقرية ورؤية أهلنا فيها ، وفيها ذكر لمصاب عظيم قد ألم بنا هنا لم نكن ننتظره ولا نقدره فققدنا أختي ، وفيها ضيق بحياة القرية في ذلك الحزن المتصل ، وحزن إلى السادة الذين لم ألتق في خدمتهم إلا خيراً وبرا ، ثم فيها ذكر العودة المنفردة في الطريق الطويلة الملتوية المخوفة ، ثم انهماك للدموع وانكباب على سيدتي أقبل يديها وقدميها كأنني أشفق أن تردني ردّاً أو تدفعني عن الدار دفعاً ، ولكنها حذبة على ، رفيقة بي ، تقيمني وتهضني وتأمري أن أذهب إلى حيث أصالح من أمري وأستأنف عملي في الدار ، كأنني لم أفارقها أشهراً ، وكأنني لم أفارقها فجأة في غير استئذان ، وكأنني لم أزد على أن غبت يوماً أو أياماً ثم عدت إلى مثل ما كنت فيه . . ! وأنا أذهب إلى حجرتي فأراها كما تركتها لم يشغلها أحد ، ولم تسكنها خادم بعدى ، ثيابي فيها كما تركتها وأدواتي فيها كما غادرتها لم ينقل شيء منها ولم يحول عن مكانه ، ثم ما هي إلا أن ألتقي الخدم ويلقوني بشيء من الدهش والرجوم ، وأخذ في بعض الحديث ، ثم أنظر فإذا كل شيء قد استقر وإذا أنا واحدة في الدار من أهل الدار كأن لم يكن بيني وبين الدار فراق . ثم أعلم ما أعلم من حزن خديجة على ووجدها بي ، وإبانها على أهلها

أن يتخذوا لها خادماً غيري ونزول أهلها عند ما كانت تريد . ثم أستأنف الحياة مع السادة والخدم كما كنت أحياءها من قبل . ومع ذلك فما أكثر ما لقيت من الخطوب ، وما أشد ما احتملت من الآلام ، وما أطول ما أنفقت بعيدة عن الدار من الشهور ! وكيف لا تطول هذه الأشهر القصار وقد كان فيها من الأحداث ما كان ، وقد لقيت فيها من الشر كل ما لقيت ، وقد واجهت فيها الموت ، وقد عانيت فيها المرض ، وقد تعرضت فيها للجنون أو لثل الجنون ، وقد تعرضت فيها لكل ما تعرضت له من ألوان الفتنة والمحنة والخوف . . ؟

إن أهل الدار لا يعلمون من هذا كله شيئاً وهم من أجل ذلك لا بكادون بشعرون بأنني فارقهم أو غبت عنهم ، ولكن أنا أعلم من هذا كله ما أعلم ، وأنا من أجل هذا أشعر بأنني قد فارقهم وقتاً طويلاً ، أو أطول مما يظنون وأطول مما أظن ، وأطول مما يحسب الناس . إنهم قد نسوا رحلتي ونسوا عودتي وانصرفوا إلى أمرهم لا يفكرون في ولا يسألون عني . ولكني أنا لم أنس من هذا شيئاً . بل أنا أشعر شعوراً غريباً ، أشعر أنني قد أخذت من أهل الدار فتاة فلتغتها هناك في قرية بعيدة من قرى الريف تظللها هضبة من هذه الهضاب التي تلي الصحراء ، ثم رددت عليهم فتاة أخرى لا يعرفونها ولا يعلمون من أمرها شيئاً . أخذت منهم آمنة الضاحكة في أكثر الوقت ، الباسمة دائماً ، أخذت منهم آمنة الغرة الساذجة التي تؤثر اللعب أو تكاد تؤثره على كل شيء ، والتي لا ترى في الحياة إلا لعباً ، والتي تحكم وكأنها تلعب وتدرس وكأنها تلعب ، وتتعلم من الخدمة والدرس ما تتعلم وكأنها تلعب ، لا تعرف

المم ولا تتمثله ، ولا تعرف أن للحياة أثقلاً وتكاليف وإنما تؤمن بأن الحياة ابتسام للنهار إذا أشرق ، وابتسام لليل إذا أظلم وابتسام لما يملأ النهار من نشاط ، وابتسام لما يملأ الليل من أحلام ، أخذت منهم آمنة التي كانت تنشأ وتنمو كما تنشأ هذه الشجيرات في الحديقة وتنمو ، فيها نضرة ولين ، وفيها بهجة وجمال .

أخذت منهم آمنة هذه ففرقت نفسها تفريقاً ، في الطريق حين كنت ذاهبة إلى الغرب تركت بعضها في بيت العمدة الذي ضيقتنا حين سمعت لحديث أختي وحين سمعت لحديث أولئك النساء ، وتركت بعضها لهذه الأشباح الحمراء التي كانت تترامى لنا حين كنا نتحدث على سطح الدار أو حين كان يمضي بنا الحملان في الطريق الصامتة وقد تقدم الليل وتقل ، ثم تركت أكثرها في ذلك الفضاء العريض فسال مع الدم الذي سال ، ودفن مع الجنة التي دفنت وسوى عليه معها التراب ثم صب عليه معها الماء ، ثم تركت سائرها نهياً لتلك العلة التي ذهبت بما بقي من قصي وإن أبقت على بقية ضئيلة من جسمي أخذت الحياة تعود إليها بعد البرء قليلاً قليلاً . أخذت منهم آمنة هذه وفرقتها على هذا النحو بين المدينة والقرية ثم رددت عليهم آمنة أخرى قد تشبه تلك في بعض ملامح الوجه ، وقد تشبهها فيما بقي من اعتدال القامة ، وقد تشبهها في طبيعة الصوت وبعض الحركات ، ولكنها تخالفها بعد ذلك في كل شيء . رددت عليهم آمنة الحزينة دائماً ، الواجدة في أكثر الوقت حتى كأنها بلهاء غافلة . رددت عليهم آمنة التي رأت الشر بشعاً والإثم عريان والجحرم منكراً ، فلاتت نفسها من هذا كله وإذا هي سيئة الظن بكل إنسان ،

وإذا هي شديدة الإشفاق من كل شيء ومن كل إنسان ، وإذا هي عابسة للنهار إذا أشرق عابسة لليل إذا أظلم ، وقد اتخذت لنفسها من ظلمة الليل الخالكة ثوباً كثيفاً ضافياً فأسيغته عليها إسباغاً وحالت به بينها وبين كل نور وأمل وابتهاج وابتسام .

نعم ، رددت عليهم آمنة هذه التي لا تمسك الدموع إلا ريثما ترسلها ، ولا تبسط الوجه إلا ريثما تقبضه ، ولا تقبل على شيء إلا ريثما تتصرف عنه ، ولا ترى في اللعب إلا ثقلاً ، ولا ترى في الخدمة والدرس إلا عناء وجهداً . ويح أهل الدار ! أيقبلون مني هذه الفتاة التي رددتها عليهم ويتسلون عن تلك الفتاة التي أخذتها منهم ؟ ويحي أنا من أهل الدار إن لم يعرفوني ولم يلقوني كما عرفوا تلك الفتاة وأنفوها ! ولكنهم قوم كرام لا يضيقون بي ولا ينفرون مني ولا يلقونني إلا بالعناية والرعاية والعطف . أولم أتحدث إليهم بذلك المصائب العظيم الذي قد ألم بنا فلا قلوبنا حزناً وبؤساً ؟ وإذن فهم يعزوني ويأسون جراح قلبي ، وهم لا ينظرون إلى كما ينظرون إلى خادم يجب أن تعمل أو إلى رفيقة يجب أن تعين فتاتهم على ما في الحياة من جد ولعب ، وإنما ينظرون إلى كما ينظرون إلى فتاة بائسة قد آوت إليهم فهم يؤوونها مكرمين لها مشفقين عليها ، يؤثرونها بالرحمة والراحة والهدوء .

وخديجة . . . ويح خديجة ! ما كنت أحسب أن فتاة نشأت في مثل ما نشأت فيه من نعم ، ودرجت على مثل ما درجت عليه من ترف وتعودت ألا تعيش إلا فرحة ومرحة ، ما كنت أحسب أن هذه الفتاة تعرف كيف تصل إلى أعماق هذا القلب الحزين ، وكيف تبلغ

بفرزتها ما لم يكن بد من التجربة الطويلة العسيرة لبلوغه بالعقل والإرادة .
 إنها لضممتني في غير سؤال ، إنها لترحمني في غير تكلف ، إنها لترثني
 لي في غير كبرياء ، إنها لتصرف بي عما ألفت من فرح ومرح ومن
 دعاية ولعب ، إنها لتحدث إليّ حديث الفتاة العاقلة الرشيدة ، إنها
 تشغلني عن همي بما تقص عليّ من أمرها أثناء غيبي وبما تقرأ عليّ مما
 قرأت أثناء هذه الغيبة وبما تقرؤني مما لم أشاركها في قراءته ، إنها لتفتح
 لي أبواباً ما كانت لتخطر لي على بال . إنها لتنبئني نبأ عجيب لم أفهمه
 إلا بعد مشقة وجهد وتكرار ! تنبئني بأنها قد أخذت تتعلم لغة أخرى
 تسميها الفرنسية فلا أفهم منها شيئاً ، لغة أخرى ! وكيف يكون ذلك ؟
 إني أعرف أن هناك لغة الريف التي كنت أتحدثها ، ولغة القاهرة التي
 تتحدثها خديجة ، ولغة ثالثة تقرؤها في الكتب فلا نعجز عن فهمها
 وإن وجدنا فيه بعض العسر ، فكيف توجد لغة أخرى ، وما عسى أن
 تكون ، وكيف يتعلمها الناس ؟ إنها تظهر لي كتباً ما كنت أقدر
 أن أراها ، وإني لأتظر هذه الكتب فلا أفهم منها إلا بعض الصور ، وإني
 لأحاول النظر في الحروف فلا أعرف لها أولاً ولا آخراً ، ولا أعرف لها
 رأساً ولا ذيل ، وإني لتضحك في رفق ، وإني لتحمس شيئاً من الكبرياء
 لأنها تعلم ما لا أعلم ، وإني لتحاول القراءة في هذه الكتب فتبلغ من ذلك
 ما لا أبلغ ، وإني لترجم بعض ما تقرأ فأفهم عنها ما تقول بالعربية
 وأدهش وينتهي بي الدهش إلى أقصاه . . .

وهذا أستاذها السورى قد أقبل وإني لالتفاه فيتحدث إليها وترد عليه

بهذا الذي لا أفهمه فأزداد بها وبه إعجاباً وفتنة . وهذه خديجة تكبر
 في نفسها وتكبر في نفسي وتقوم منى مقام المعلم ، وإذا هي تقرؤني
 هذه الحروف التي لم أكن أقرؤها ، وتعلمني هذه اللغة التي لم أكن أعلمها ،
 وإذا أنا تلميذة لها في الصباح وتلميذة معها في المساء ، وإذا المعلم بارع
 وإذا التلميذة على حظ من ذكاء ، وإذا أنا أجد في هذه الحياة الجديدة
 وفيما نقرأ معاً وما نتعلم معاً عزاء أى عزاء ، ونسياناً أى نسيان ؟ وإذا الأستار
 تلقى شيئاً فشيئاً بيني وبين هذا الماضي البشع القريب ، وإذا كل شيء
 في هذا الماضي ينمحي قليلاً قليلاً إلا شخصين اثنين لا ينمحيان
 ولا يتضاءلان ، وإنما يرتسمان في نفسي ارتساماً قوياً ويتمثلان أمامي
 تمثلاً متصلًا ملحاً ، وهما شخص أنحى صريعاً يتفجر من صدرها الدم
 في الفضاء العريض ، ويغمغم فيها بكلمات لا أفهمها ، وشخص ذلك
 المهندس الشاب الذي أغواها ودفعها دفعاً إلى ذلك الفضاء العريض
 الذي صرعت فيه .

نعم ! ذلك المهندس الشاب الذي أغواها ودفعها دفعاً إلى ذلك الفضاء
 العريض الذي صرعت فيه . لقد منحها الحياة ، ولقد قضى عليها بالموت .
 وهل ذاق البائسة من لذة الحياة ونعيمها إلا هذه الثمرات الحلوة المرة التي
 جنبها في هذه الدار القائمة من دارنا غير بعيد ! إلى هذه الدار دُفعت

حين هبطت من أقصى الريف ، فأخذت تعرف الحضارة وتألفها وتبلو من طياتها مارتق لها العيش وقد كان غليظاً ، وحبيب إليها الدهر وقد كان بغيضاً . فيها عرفت البرق واطمأنت إلى النعم ! ولم تكد تنشأ وتنمو حتى مدت لها الحب ذراعين فيهما النعم والبؤس ، وفيهما الرحمة والعذاب ، فأمرعت إلى ما كان يترامى لها من ذلك جاهلة له ، مفتونة به ، مبتالكة عليه ، ثم انصرفت كارهة عما بلغت ، وما أدري ماذا كان يحزنها ويمزق قوادحها تمزيقاً حين كانت تقص على أبناءها وتحدثني بأحاديثها : أهو الندم على ما قلعت من ذنب واقررت من خطيئة ، أم هو الأسف على ما فارقت من لذة وحرمت من نعم ؟ وما أدري ما الذي كان يملأ قلبها فرقاً ورجماً حين كانت تترامى لها تلك الأشباح الحمراء : أهو الموت الذي كانت ترى نذيره منكراً بشعاً وسمعه صارخاً ملحاً ، أم هو اليأس الذي كان يقطع الأسباب بينها وبين هذا المهندس الشاب ، ويلقي بينها وبين الحب ولذاته وآلامه حوائل وموانع لا سبيل إلى أن تجتاز ؟

نعم ! هذا المهندس الشاب ! لقد ارتسم شخصه في نفسي ارتساماً قوياً ملحاً ليس إلى محوه من سبيل . ولقد كنت أرى أختي فإذا هو ملازم لها كأنه الظل ، بل كأنه ظل من هذه الظلال الحمراء التي كانت تلازمها حين كنت أراها أثناء العلة وحين كانت تعرض لي في الطريق ! بل لقد تفرقت عن أختي كل هذه الظلال وانمحت انمحاء ، ولم يبق معها إلا هذا الظل الذي لا أكاد أراه حتى تضطرب نفسي اضطراباً عنيفاً ، وحتى يثور في قلبي شعور قوي مختلط غريب شديد التعقيد ، شعور فيه الخوف والرغبة ، وفيه البغض ، وفيه يشبه الحب ، أو حب الاستطلاع على أطل تقدير . . .

من هذا الشاب ؟ أو من عسى أن يكون ؟ وكيف يمكن أن يكون ؟ أي شيء فيه أغوى هذه الفتاة البائسة ودفعها إلى ما دُفعت إليه ؟ ما عسى أن يكون حظي منه إن لقيت ، وأن يكون حظي مني إن لقيتي ؟ أو أحبه أم أبغضه ؟ أبحني أم يبغضني ؟ ما هذه الغواية التي أفسدت على أختي أسرها وأفسدت علينا جميعاً أمرنا ، وقضت على أختي بالموت ونقضت علينا جميعاً لذة الحياة ؟ خواطر كانت تملأ قلبي إذا أصبحت ، وكانت تملؤه إذا أمست ، وكانت تلح عليه بين ذلك فلا ترد عنه إلا في شيء من الجهد والعنف حين تلح على خديجة في الحديث أو في القراءة أو في مشاركتها فيما كانت تحرص على أن أشاركها فيه من الدرس والاستظهار .

خواطر كانت تملأ قلبي في اليقظة ، وكانت تملؤه في النوم ، وكانت تصرفه عن كل شيء إلا عن هذه الفتاة التي سفك دمها في ذلك القضاء العريض ، فذاقت الموت وذهبت نفسها إلى السماء وهوى جسمها إلى الأرض وهيل عليه التراب ، وإلا هذا الفتى الذي ما زال يغنى ويروح فرحاً مرحاً ، مغتبطاً مستبشراً ، تبسم له الحياة ويبسم هو للحياة .

ليتني أدري أيدكر ضحيته تلك أم قد نسيها . وليتني أدري أيدكرها إن ذكرها في شيء من الرفق بها والعطف عليها والحنين إليها ، أم يذكرها إن ذكرها في إعراض الزاهد وانصراف المزدري ! وأين تكون هذه الفتاة من نفسه ، وما أكثر الفتيات في نفسه ! لقد كان بالقياس إليها كل شيء ، ولم تكن هي بالقياس إليه شيئاً . لم تعرف غيره وعرف هو غيرها كثيرات . لم تذوق لذة الحياة إلا بين ذراعيه ، وما أكثر المواطن التي ذاق هو فيها لذات الحياة ! وما أكثر ما ذاق من ألوان اللذات وما يلا من صنوف النعم ! وليتني أعرف كيف يلقى ذكرها إن ذكرت له : أيسم

لصورتها أم يلقاها بالعبوس ! بل ليتني أعرف كيف يلتقي النبا البشع المروع
إن ألقى إليه : أيعجزه أن يعلم أنها ذاق الموت وأنها ذاقته لأنه هو قد دفعها
إليه ، أم يقع هذا النبا من نفسه موقعاً يسيراً فلا يثير في قلبه حزناً ولا أسفاً
ولا يسلط على نفسه لوعة ولا ندماً !

وكذلك امتلأت نفسي بهذا المهندس الشاب ، حتى لقد كنت
أتمس القرار منه فلا أظفر به إلا في جهد أي جهد وعناء أي عناء ، وحتى
لقد أنكرت نفسي وأنكرت من كان حولي من الناس والأشياء ، وأنكرني
من كان حولي حين طال عليهم ما كنت مغرقة فيه من الوجوم والذهول ،
إلا خديجة فإنها لم تنكرني ولم أنكرها ، وإنما مضت فيما كانت فيه رفيقة
في عطوفتي على ، تعزيني وتسليني وتفتن في ذلك ما وسعها الافتتان . وأنا
أعرف لما هذا فأحمده وأقلده وأرد عليا بعض ما كانت تسدي إلى من
جيل ، فأنصرف إليها حين ألقاها عن هذه الخواطر ، وبصرغ قلبي لما
أسمع من حديثها ولما أشاركها فيه من درس ، ولكن لا ألبث أن أعود إلى
ما كنت فيه من وجوم وذهول . وتحس هي مني ذلك فتصرف عني
بعض الشيء وتركني لما أنا فيه ، كأنها تقدر أني أجد في هذا الوجوم
والذهول لذة وراحة واطمئناناً .

وما تزال هذه الخواطر تلح علي وتستأثر بي حتى تستحيل إلى شيء من
الرغبة القوية الملحة في أن ألقى هذا الشاب فأسمع منه وأتحدث إليه . وأنا
أتمس أخباره وأتبع أسراره وأتلفظ ما يلقي عنه من حديث . ولم تكن
داره بعيدة من دارنا ، وكان الظروف قد انتمرت بي فهايات لي أن أرى
ذهابه وحيث من نافلتني حين يغدو من داره أو يروح إليها ، من هذه
النافذة التي طالما كنت أبادل أختي منها الإشارة وأسارقها منها بعض

الحديث . من هذه النافذة التي لم أذكرها ولم أدن منها حين عدت إلى
الدار ، وإنما مكثت أياماً وأسابيع أجهلها جهلاً وأهملها إهمالاً . ثم خطرت
لي فجأة وفرض علي مكانها فرضاً ، فإذا أنا أدنوها وجلة وأفتحها جزعة
محزونة ، أريد أن أقف إليها لأتمثل فيها صورة « هنادي » ذاهبة جائية ،
متغنية بما كانت تتغني به من أغاني الريف ثم أغاني المدينة . وإني لأخذ
موقفي من النافذة في الأيام الأولى فلا أرى شيئاً ولا أسمع شيئاً ، وإنما هو
قلب ينفطر ، ودموع تنهمر ، وصورة لأختي لا تأتي من الدار ولا تعبر
إلى ما بيني وبينها من طريق ، وإنما تأتي شاحبة حزينة من قلبي هذا
الأسف الحزين . وأنا مع ذلك أطيل الوقوف إلى النافذة وأكرره ، وأدنو
منها كلما أتبع لي الدنو في النهار حيناً وفي الليل أحياناً . آلفها وتآلفني ،
حتى أصبح وقوفي منها وجلوسي إليها عادة طبيعية من عاداتي كلما دخلت
الحجرة وأغلقت بابها من دوني . والأيام تمضي وتتبعها الليالي ، وإذا أنا
أقف إلى النافذة وأجلس إليها فلا تنهمر الدموع ، ولا تتمثل لي صورة
أختي شاحبة كئيبة ، وإنما أنا أرى أمامي وأنظر ، فإذا صورة أختي كما
كنت أعرفها تذهب وتجيء . صوت أختي ينتشر في الفضاء فيملؤه فرحاً
ومرحاً وبهجة وسروراً ، متغنية بهذه الأغنية التي طالما كانت ترددها
بصوتها الرخيم المعتلى العذب فيحملها الهواء إلى النفوس كأنها قطرات الندى :

آه يا نا بانا من غرامه يا نا وإن كنت أحبه ما على ملامه

وما كنت أفهم من هذه الأغنية إلا ما يفهمه الناس جميعاً ، إن كان
الناس يفهمون منها شيئاً ، فهي شائعة ذاتعة في المدينة وفيها حولها من القرى
تسمعها في كل عرس وتسمعها من كل امرأة ومن كل فتاة ، بل من كل

صبية تحاول الغناء أو تقصد إليه . أما الآن فإني أتمثل أختي كشيبة حزينة يائسة ، كأنها ظل شاحب ليس له ثبات ولا استقرار ، وإنما هو هائم مضطرب يصدر عنه صوت ضئيل نحيل كأنه الصدى ، وهو ينتشر في الجو انتشاراً يملأ القلوب لوعة وأسى ، وهو يحمل هذه الأغنية كأنها شرر النار لا تمس قلباً إلا أحرقتة إحراقاً ، ولا تبلغ نفساً إلا فرقها تفريقاً ؟ !
 مالي أسمع هذه الأغنية فأفهم منها ما لم أكن أفهم ، وأعلم منها ما لم أكن أعلم ، وأحس منها ما لم أكن أحس ، وأستكشف فيها من المعاني والمراي والأغراض ما لم يكن يخطر لي من قبل على بال ؟

إن هذه الآهة التي يرسلها الصدى النحيف ممتدة ضئيلة لا تكاد تثبت ولا تكاد تنهى ، لتشير في نفسي عواطف لم أكن أعرفها ولم يكن لي بها عهد . وإن هذا النداء ليصور نفسي الأنين كما يصور نفسي الاستغاثة ، وكما يصور نفسي اليأس من البر حين يتكرر . وإن هذا الاعتذار ليصور نفسي الهيام في غير احتفال بالعاقبة ، ولا ندم على ما كان ، ولا تقدير لما هو كائن . وإنه ليصور نفسي جرم هذا الحال الأليم الذي سمع الأغنية ألف مرة ومرة فلم يعقلها ولم يفهمها ولم يبرئ هذه الحجة الهائلة من اللوم ، ولم يعفها من الإثم ، ولم يصرف عنها العقاب ؛ لأنه جامد القلب جاف الطبع ، خشن النفس غليظ المزاج ، لم يذق لذة الحب ولا ألمه ، ولم يعلم أن من الحب ما يكون فوق اللوم ، وما يكون فوق الإثم ، وما يكون فوق العقاب .

نعم ! وإني لأسمع هذا الصوت الضئيل النحيل ينشر هذا الغناء اليائس الحزين ، فأتصور هذا المهندس الشاب قد برع جماله حتى أصبح فتنة

لا تنى وسحراً لا يقاوم ، وقد رقّ حديثه حتى أصبح شركاً يصيد القلوب وحبالة تختلس النفوس ، وقد لطفت حركاته حتى لم يبق للأنفاس عذبة سبيل . وإني لأنظر فإذا هذه الأغنية تثير أمانى صوراً ثلاثاً : صورة هذا الفتى الجميل الرائع يغرى بالإثم ويدفع إليه ، وصورة هذا الشيطان الآثم المريد يأخذ بالإثم ويعاقب عليه ، وصورة هذه الفتاة البائسة اليائسة يتنازعها الإغراء المضنى والعقاب المقتنى . ثم أنظر إلى هذه الصور فأسأل نفسي أين أنا منها ؟ أما خالي فإني أبغضه بغضاً لا حد له ، ولو ظفرت به لمزقته تمزيقاً . وأما أختي فإني أرثى لها رثاء لا حد له ، ولو استطعت لرددت إليها الحياة . وأما هذا المهندس الشاب فما أدري أين يكون مكانه : أهو مكان الميغضة العدو أم هو مكان المحبة الهائلة ؟ ! إنه النار المضطربة ، وإني القراشة التي تهفو إليها وتكلف بها ولكن عن علم بأنها محرقة مهلكة . . . لأعلمن من علم هذا المهندس الشاب أكثر مما علمت ، وليكون لي منه مكان لم أكن أقدّره . لأطفئن هذه النار أو لأحرقن بلهيا المضطرم !
 ومنذ ذلك الوقت أخذت أستيقن بأن حياتي موصولة بحياة هذا الشاب ، وبأن مقامي في بيت المأمر موقوف ، وبأن انتقال منى إلى بيت هذا الشاب محتوم إن لم يتم اليوم فسيتم غداً .

ولزمت النافذة أرقب منها الدار أثناء النهار وأوائل الليل ، كأنما وكلت بحراسها أو تتبع ما يجري فيها . وما هي إلا أن أعرف مواعيد غدر الفتى ورواحه ، وخروجه من داره للسمر إذا أقبل الليل ، ورجوعه للنوم إذا

انقضى من الليل أكثر من ثلثه ، وإذا أنا قائمة إلى النافذة في هذه
المواعيد أراه حين يخرج ، وأراه حين يدخل ، ولا تطمئن نفسي لأمر من
الأمر أو تمن من الأتمثال إلا إذا رأيت شيئاً منك النهار ورائحاً بعد الظهر .
فإن حيل بيني وبين ذلك لطارئ من قبله أو من قبلي فهي الحياة
المضطربة ، والنفس المفرقة ، والفكر المشرّد ، والقلب الذي لا يهدأ ولا يستقر .
ثم يشتد الأمر بي وتلح الرغبة في هذه المراقبة على ، وإذا أنا أتمسك
الأيام التي لا يخرج فيها من داره مع الصبح فأبقى فيها أمام النافذة أتربق
ما أرجح أنه لن يكون ، ولكنني أتربقه على كل حال لأنني لا أريد أن
يفوتني مخرجه من الدار ، كأنما اتصلت به حياتي اتصالاً ، ومُدت
الأسباب المثينة بين هذه الدار وبين قلبي ونفسي وعيني ، فهي لا تبرح
خاطري مهما تكن الظروف ، وهي تجذبني إلى النافذة جذباً . وأنا أحس
مع ذلك أن هذا ليس إلا أول الشر ، وأن يوماً قريباً أو بعيداً سيأتي من
غير شك لا تجذبني الدار فيه إلى النافذة لأراها ولأرى هذا الشاب
خارجاً منها أو عائداً إليها ، بل تجذبني الدار إلى نفسها لألج بابها وأعرف
أصحابها ، وأتحدث إلى من فيها . ولو أنني أرسلت نفسي على سميتها وخليت
بينها وبين ما كانت تريد لما تأخر مقدم هذا اليوم ، ولكنني دافعت نفسي
عن هذه الدار دفاعاً شديداً ، وجادلت نفسي في الاتصال بها جدالاً
طويلاً ، وظفرت من هذا الجدل وذلك الدفاع بتأخير اليوم المحتوم
أسابيع بل أشهراً لست أدري أكانت طويلاً أم قصاراً ، ولكنني أعلم أن
أحتملها كان ثقيلاً ، وأني كنت لا أستقبل النهار حتى أستيقن أن الهزيمة
ستم فيه ، ولا أستقبل الليل حتى أتي بأنه لن يتقدم حتى يكون التسليم

والإذعان . وأمضي مع ذلك في جهاد نفسي ومدافعتها . حتى إذا استقر كل
شيء ، وغلقت الأبواب ، وانقطعت سبيل إلى الدار ، اضطرت إلى أن
أزى إلى مضجعي ، ومجئت لنفسي يوماً من أيام النصر وأمداً من آماد
الفوز ، وأجلت الهزيمة والتسليم إلى غد .

وإني لأرى نفسي ذات يوم وقد تقدم النهار حتى كاد ينقضي وأخذت
طلّاع الليل الشاحبة تغزو الأرض ، وإني لأراني خارجة كالمنسلة من دار
المأمور ، ساعية كالهاربة التي تحرص على الاستخفاء ، أدور حول الدار
مجاورة أسوار الحديقة حتى لا أكاد أمسحها مسحاً ، ثم منعطفة بعد
قليل ، ثم منطلقة كالسهم حتى أقطع ما بين الدارين من طريق . وألج
حديقة المهندس ، ثم أسعى هادئة مضطربة معاً نحو البستان كما
أريد أن أسأله عن شيء ، حتى إذا بلغته لم أستطع أن أقول له شيئاً ،
وإنما وقفت أمامه ذاهلة غافلة بلهاء بملكني الخوف ويغمرني الحياء .
أريد أن أمضي أمامي حتى أدخل الدار وأبلغ غرفة « هنادي » فأقضي
فيها لحظة أو لحظات ، ولكنني لا أستطيع أن أتقدم ، والبستاني يسألني
من أنا ومن أين أقبلت وماذا أريد ؟ فإذا ألج على في السؤال وأحسست
أن صمتي يطول وأن الرجل سينتهي إلى الضيق بي وبما أعرض عليه من
غفلة وبله وذهول ، وليت مدبرة ، وانصرفت نافرة لا ألقى على شيء ،
كأنني أخشى أن يتبعني تابع أو يتعقبني متعقب . وما أزال أشد في العدو
حتى أبلغ دارنا فأنسل إليها لم يشعر بخروجي منها ولا بعودتي إليها أحد .
ثم أمضي متجاهلة متغافلة حتى أبلغ غرفتي وأخذ موقعي من النافذة وقد
مجلت على نفسي بعض الهزيمة وإن لم أنه بها إلى الغاية .

على أنى ألفت الطريق بين هاتين الدارين ، وألفت البستاني والاختلاف إليه ، والأخذ معه في أطراف من الحديث ، وتبادل الإشارات معه من النافذة ومساوقه بعض الكلام .

ثم لم تتصل الأيام بيني وبين هذا البستاني حتى كان الظاهر من أمر هذا المهندس الشاب عندي واضحاً معروفاً : أعرف من عاداته وأطواره ومن ذهابه وإيابه ومن جده وهزله ما يمكن لمثل أن يعرفه حين يتصل بخدمة والمقرين إليه .

على أن المعرفة لم تقتصر على البستاني وإنما تجاوزته إلى الخادم : فقد كان هذا المهندس لا يستطيع أن يكتب بيستانيه ، وإنما هو في حاجة إلى خادم 'تصلح من أمره وتشرف له على نظام الدار . وقد علمت أن أختي لم تكد تفارقه حتى تعجل البحث عن خلفها ، واهتدى بعد قليل من الوقت إلى هذه الفتاة الجميلة الوداعة ذات الوجه المشرق والجسم البصير والعقل الضيق القصير . اهتدى إلى « سكينه » هذه التي أقامت عنده خليفة لأختي ، والتي كنت أتحدث إليها فلا أرى عندها غناء ، ولا أجد في الاستماع إلى أحاديثها لذة ، ولا أجد نشاطاً إلى أن أشاركها فيما تخوض فيه من لغو . ولكني مع ذلك كنت حريصة كل الحرص على أن تشتد الصلة بيني وبينها وتزول الكلفة . ولم يكن في هذا مشقة ولا عسر ، فما أسرع ما اتصل الحديث ! وما أسرع ما انتهينا به إلى الدخائل والأسرار ! وما أسرع ما أحسست في نفسي عداوة آتمة تشتد كل يوم وتتمو حتى عملاً قلبي وتملك على كل أمري وتكاد تخرجني عن طوري وتدفعني إلى ما لا خير فيه . فقد فهمت - وليتني لم أفهم - أن سكينه لم تخلف هنادي على الإصلاح من أمر الدار والقيام بما تحتاج إليه من خدمة فحسب ،

وإنما خلقتها على قلب هذا الشاب إن كان لهذا الشاب قلب ، بل خلقتها على هواه ومحبته وعلى إثمه وغوايته ، وما أكثر ما لهذا الشاب من الهوى والمجون ، ومن الإثم والغواية ! إنما هو صائد يحتل الفتيات احتبالاتاً ويختلبهن اختلاباً ، يصرفهن عن الحادثة وينحرف بهن عن القصد ، حتى إذا بلغ منهن ما يزهده فيهن خلى بينهن وبين ما ينتظرهن من الموت أو من حياة هي شر من الموت . وإذن فقد خان هنادي ولم يحفظ لها عهداً ولم يستبق لها مودة ، ولم يكد يفارقها حتى انصرف عنها وزهد فيها ، والتمس لذته وهواه حيث استطاع ، لم يحفل بما قدم من سوء ، ولم يحفل بما قدمت إليه من تضحية ، ولم ينظر إلى هذا كله إلا على أنه لعب 'ينفق' فيه الوقت ويستعان به على احتمال الحياة وتسلل به الغربة في مدن الأقاليم .

هو خائن إذن ، وهو يضيف إثم الحياة إلى إثم الغواية ، وهو خليق أن يلقي جزء هذين الإثمين كأشنع ما يكون الجزاء ، وهو لاق حظه من هذا الجزاء في يوم من الأيام ، ولأقبحه من يد آمنة هذه التي شهدت الموت مرتين : شهدته حين عُدِي على أختها من يد ذلك الحال الأثيم في ذلك الفضاء العريض ، وشهدته حين عُدِي على ذكرى أختها من يد هذا المهندس الشاب الغاوي وفي هذه الدار الصغيرة الأنيقة التي يقوم عليها البستاني وتضطرب فيها سكينه كما كانت تضطرب فيها هنادي .

أغيرة هذه التي تضطرم في قلبي اضطراماً وتحجب إلى التفكير في الموت وكيف يساق إلى الناس ، وتحجب إلى التفكير في الخناجر التي تمزق الصدور وفي السم الذي يمزق الأحشاء ؟ أغيرة هذه التي يغلي لها الدم في عروقي ويصعد لها اللهب في وجهي وتقدح لها عيناى بشيء كأنه الشرر ،

يحمل أهل الدار على أن ينكروا منظري وعلى أن يتساءلوا ما خطبي وإلى
أي حال سينتهي بي ما أنا فيه من الدهول ؟ ١

أغيرة هذه التي زادت الحزن عن نفسي وأقامت مكانه غضباً ناثراً
متصلاً لا يهدأ ولا ينقضي ؟ ولئن أغار أو على من أغار ؟ أغائرة أنا لهذه
الأخت البائسة التي ذقت الموت في سبيل هذا الفتي دون أن يكون
لتضحيتها أهلاً ؟ أغائرة أنا لهذه الرغبة التي كانت تملأ نفسي وتملك قلبي
وتدفعني دفعاً إلى أن أعرف من أمر هذا الشاب ما كنت أجهل ، والتي
لم تكذب تبلغ غايتها حتى انتهت إلى بأس مهلك لا مخرج منه ولا آخر له ؟
أغائرة أنا لهذا التفكير الطويل فيمن لم يكن أهلاً للتفكير ؟ لمن هذه الغيرة
وعلى من هذه الغيرة ، أو إلام تريد أن تنتهي بي هذه الغيرة ؟

لا أدري ! ولكني أعلم أنها قد جعلت مقامي في دار المأمور صبراً
وعشرتي لخديجة شاقة ! فقد توحشت أو كدت أتوحش ، وأصبحت نافرة
من كل شيء حتى من خديجة التي لم أكن أظن أنني سأعرض عنها يوم
من الأيام . وقد أخذت أحس أن مقامي قد أخذ يتقل ، وأن عشري
قد أخذت تشق على من حولي ، وأن خديجة قد أخذت تجزيني جفاء
بجفاء وإعراضاً بإعراض .

لك قد يا أمة إلام تدفعك هذه النفس المضطربة التي لا تهدأ ، وهذه
المواطف الثائرة التي لا تستقر ، وهذا القلب الهائم الذي لا يعرف ما يريد ؟ ١

وأصبحت ذات يوم فإذا شيء غريب يضطرب في جو الدار أحسه
ولا أتبينه ، وأشعر به ولا أحققه ، ألمحه في وجه المأمور وفي وجه ربة البيت
حين ينظران إلى خديجة ثم يسترقان نظرات فيها أمل مبتهج وحزن مكتئب ،
وحين يخلوان للحديث بعد الغداء أو بعد العشاء فتطول بينهما الخلوة أكثر
مما تعودت أن تطول . وألمحه في هذا الابتسام الذي يهديه المأمور مخبئاً
كريمياً إلى أهل الدار جميعاً ، متحدثاً إلى من لم يكن يتحدث إليه ، متلطفاً
لمن لم يكن يحفل بوجوده ، وفي نظرات طويلة يلقيها على أنا حين يلقاني ،
وفيما تظهر ربة البيت من تبسط مع الخدم وعطف عليهم والميل إلى أن
تأخذ معهم بأطراف الحديث .

ألمحه في هذا كله ، ولكني أجد فيه غموضاً يثير ميلى إلى الاستطلاع ،
ويكاد يسلبني بعض الشيء عن المهندس الشاب وعما يقع في داره من خيانة
وإثم وعما يثير في نفسي من غضب وغيرة . وأهم أن أسأل خديجة عن هذا
الذي ألمحه ولا أستبينه ، ولكني أجدها غافلة لا تلمح شيئاً ولا تحس شيئاً
فأعرض عما هممت به وأكتفي بالملاحظة والانتظار . على أن الانتظار لم
يطل ، فما تنقضي أيام قليلة حتى تظهر حركة في دار المهندس الشاب
تستبج حركة في دارنا ، ثم تتلاحق الحوادث بسرعة ، وإذا هي تملكني
وتغمرنى وتستأثر بي وتنسني كل شيء وتذكرني بكل شيء في وقت واحد

وتخرجني من هذا السكون اليأس الذي لزمته إلى نشاط يائس دفعت إليه دفعا .

هذا بيت المهندس الشاب قد ظهرت فيه الحركة وكثر فيه الاضطراب فأثاثه ينقل من مكان إلى مكان ويناله الإصلاح والتنظيف والترتيب ، ويؤتى إليه بأثاث لم يكن فيه ، بعضه مشترى تظهر عليه الجدة ، وبعضه مستعار يظهر عليه القدم ، كأنما تهبأ الدار لاستقبال بعض الزائرين ، فهي تعد لهم ما يحتاجون إليه من الغرفات والحجرات ومن الأدوات والأثاث . والبستاني مسرف في الحركة مندفع في النشاط ، أراه هنا وأراه هناك ، وقد استعان باثنين أو ثلاثة من شباب المدينة يعملون معه في النقل والتنظيف والترتيب . وسكينة تعمل معهم لا راضية ولا ساخطة ، لا مبهجة ولا مبتسمة ، وإنما هي تذهب وتجيء كأنها أداة لا تعرف الرضا ولا السخط ، ولا تحس الحزن أو الفرح .

وهذه الحركة المتصلة في بيت المهندس قد أثارت حركة فائرة متقطعة في بيتنا ! فهذا سرير ينقل ، وهذه وسائل تعار ، وهذه آنية تجمع ثم تحمل ، وهذه ربة البيت تكلفني راضية باسمه أن أذهب إلى بيت المهندس فأعين الخدم على بعض ما يعملون ، وأن أشرف على التنظيم والتنظيف والترتيب ، وأن أعني بأن تهبأ الدار لاستقبال الزائرين تهيئة حسنة لا عيب فيها ولا نقص . ثم هذه ربة البيت تستعد في بيتها لتهيئة الطعام الذي سينقل إلى بيت المهندس إذا كان الغد ، ولإعداد الوليمة التي ستقام في دارها إذا كان اليوم الذي يليه .

وما أكاد أذهب إلى بيت المهندس وأخذ مع الخدم في العمل والحديث

حتى أعلم - وليتني لم أعلم - ، وأفهم - وليتني لم أفهم - أن أسرة المهندس مقبلة من القاهرة إذا كان الغد لتقيم مع ابنها أياماً أو أسابيع ، وأن هذه الزيارة ليست كغيرها من الزيارات ، وإنما هي زيارة تتم لأمر يراد ، فستخطب بنت المأمور للمهندس الشاب ، وستشهد المدينة أفراحاً لم تشهدها منذ عهد بعيد ، وسيسمع أهل المدينة من ألوان الغناء ما لم يتعودوا أن يسمعوا من قبل ، فلن يقرأ عليهم المولد هذا المغنى المشهور الذي يقيم في عاصمة الإقليم والذي يتعصب له أهل العاصمة وما حولها من القرى وما يجاورها من المدن . ولن يقرأ لهم المولد هذا المغنى الآخر الذي يقيم في أقصى الإقليم نحو الشمال والذي ينافس صاحبه أشد المنافسة ويتعصب له نصف الإقليم أو ما يقرب من نصفه . ولن يقرأ لهم المولد الشيخ المذكور هذا الذي يقيم في المدينة نفسها ويحبه أهل الريف ، ولكن شهرته لا تتجاوز المدينة إلا قليلاً . لن يقرأ لهم المولد واحد من هؤلاء المغنين ، ولكنهم سيسمعون لمغن يأتي من القاهرة ، قد يكون عبد الحى ، وقد يكون الشيخ يوسف ، وقد يكون غيرهما من كبار المغنين . وستأتى العوالم من القاهرة ، وستأتى مغنية مشهورة لتطرب السيدات ، وستقام الزينة وتولم الولائم على أحسن طراز وأجمل شكل ، وسيأتى المنظمون لذلك والمشرفون عليه من القاهرة لا من المدينة ولا من عاصمة الإقليم . وكان الخدم يفيضون في ذلك ، ويمجرون في تفصيله مع هذا الخيال الربيعي الساذج الذي يحسب أنه يعصى أمامه إلى أبعد أمد على حين لا يزال في مكانه لم يتجاوزه أو لم يكد يتجاوزه إلا قليلاً .

كانوا يفيضون في الحديث عن المغنى والمغنية ، وفي الحديث عن الطهارة

الذين سيبيتون الطعام ، وعن القراشين الذين سينظمون الوليمة ويطوفون على الناس بالأطباق والأقداح ، وعن الموسيقى التي ستأتي من القاهرة فتقضي في المدينة يومين أو أياماً تطرب الناس في الصباح وتطرب الناس في المساء ، وعن المدعوين الذين سيشهدون الحفل والذين يدعون إليه من قريب ومن بعيد ، وفيهم البشاوات والبكاوات ، وفيهم العلماء من شيوخ الأزهر . كانوا يفيضون في هذا كله ، ويجدون في الإفاضة فيه لذة يتعجلون بها الحوادث ويستبقون بها إلى ما ينتظرون من فرح وغبطة وابتهاج . وكنت أنا أسمع لأحاديثهم فأفهمها ، وأعي أqlها وأهمل أكثرها ، وأفكر فيما لم يكن بداً من أن أفكر فيه ، وهو أن هذا المهندس الشاب قد أغوى أختي ثم دفعها إلى الموت ، ثم أخذ يخنونها ويشك ما كان يجب فاعنده من حرمة ، ثم هو الآن ينظم الحياة تنظيمًا ، ويريد أن يأنبها ويقدم عليها ويمضي فيها جبهة باسم الدين والعرف والقانون .

نعم ! ولن تكون سكينه هذه الغافلة البلهاء التي لا أعرفها ولا تعرفني إلا منذ حين ، لن تكون خليفة هنادي على بيت هذا الفني وقلبه ومجونه وإثمة ، ولكن التي تخلف هنادي على هذا كله ستكون خديجة ! خديجة أحب الناس إلى وأثرهم عندي وأحسنهم مكاناً من قلبي ، خديجة التي أجدها عندها - وعندها وحدها - العزاء عما لقيت من شر وما احتملت من نكر وما ألم بي من مكروه ، خديجة التي أستعين بها على احتمال هذا الخطب الذي أصابني في أختي وفي أهلي ، هذه هي التي ستراد على أن تأخذ من قلب المهندس الشاب ، ومن بيته ، ومن حياته كلها مكاناً ما ينبغي لفتاة أن تأخذه بعد أن سبقت إليه هنادي وأدت ثمنه

بذلك الدم الزكي الذي أريق في ذلك القضاء العريض ! ولم أكن أسأل نفسي كيف يكون موقع هذا النبأ من نفس خديجة حين يلقي إليها : أنتكره وتضيق به ، أم تحبه وتبهج له ؟ ولم أكن أسأل نفسي كيف تجد خديجة موقفي منها حين أحاول أن أصد عنها حب هذا الرجل الآثم وأن أرتد عنها ، وأن أبذل في ذلك من القوة والجهد ومن الحيلة والذكاء ما أملك وما لا أملك ؟

لم أكن أسأل نفسي عن شيء من هذا ، ولكني كنت ثائرة أشد الثورة وأعنفها ، مؤمنة أشد الإيمان وأقواه بأن هذا الأمر لن يكون ، مصممة أشد التصميم على ألا يكون مهما تنبأ له الظروف ومهما تتظاهر عليه القوى .

ثم لم أكن أسأل نفسي عن كل هذه الخواطر التي كانت تجيش في صدري وتبعث في هذه الثورة وهذا الإيمان وهذا التصميم : أكانت خواطر صادقة أم كانت كاذبة ؟ أكنت وفيه لأختي بالعهد مشفقة على حقها أن يضيق ، حريصة على أن أحفظ لها بهذا العاشق الخائن رغم أنفه ، مقاومة في سبيل ذلك قوة الفطرة وقوانين الحياة ، أم كنت أتخذ هذه الخواطر حجة وتعلل أختي بها على نفسي ما لا أحب أن تظهر عليه ، وأستر بها دون قلبي ما لا أجد الشجاعة على أن أواجه به في صراحة وجلاء ؟

لم أكن أسأل نفسي عن شيء من هذا ، بل لم أكن أسأل نفسي عن شيء ما ، وإنما كنت أفني قوتي وجهدي وتفكيري في أن أحول بين خديجة وبين هذا التدبير الذي يدبر وهذا الكيد الذي يراد . وكثيراً

ما كان يخطر لي أنني أحمي خديجة من شر عظيم ، وأحول بينها وبين خطر منكر ، وأقوم دونها أن يفترسها السبع أو يفتالها الذئب ، وأضن بها على أن تبذل لهذا المحرم الآثم الذي لا يعرف حقاً ولا يرعى حرمة ولا يرجو وقاراً لخلق ولا دين . وكثيراً ما كنت أقدر أن قيامي دون خديجة وحمايتها من هذا الخطر الذي يوشك أن يلطم بها فرض يأخذني به الوفاء لما بيننا من مودة ، والرعاية لما لها عندي من جميل . وكثيراً ما كان هذا كله يجتمع ويأتلف بعضه إلى بعض وينمثل أمام نفسي مجتمعاً مؤثلاً قد اتخذ من الوفاء والنصح والإخلاص زينة خلابة ، فإذا هو أمامي امرأة نقية صافية ، أنظر فيها فترد إلى صورة نفس كريمة عظيمة قد ارتفعت عن كل نقیصة ، وأصبحت مثالا للبطولة والشهامة والتضحية في سبيل الأنثى التي اغتالها الخطر ، والصديق التي يوشك الخطر أن يغتالها . ولو أنني حولت وجهي عن هذه المرأة بعض الشيء في ذلك الوقت ، ولو أنني نظرت في نفسي ولم أنظر أمامها ولا من حولها ، ولو أنني تعمقت قلبي وتبينت قرارة ضميري ، لرأيت شراً يا له من شر ، ولشهدت هولاً يا له من هول ، ولعرفت أنني لم أكن أنني لأختي ولا لصديقي ، وإنما كنت أؤثر نفسي بما أراه خيراً وشرّاً ، وأقف هذه النار المضطربة المتأججة على نفسي وأحبها من أن يحترق بها أحد غيري !

نعم ! ولكنني لم أكن أنظر في نفسي ولا أحاول النظر فيها ، وإنما كنت مدفوعة إلى إفساد هذا الأمر الذي يدبر ، ومنع الأسباب أن توصل بين خديجة وبين هذا المهندس الشاب الذي كان لأختي منذ حين والذي يجب أن يكون لي بعد حين ، كأنما ورثته عنها بعد الموت !

والغريب أن هذه الحواطر المضطربة كلها لم تفسد من أمري شيئاً ، ولم تغير من شكلي ولا من نظام حياتي الذي ألفه أهل الدار قليلاً ولا كثيراً . إنما كنت أصبح وأمسى ، وأذهب وأجىء ، وأعمل وأكسل ، وأنشط وأفتر ، كما رأي أهل الدار من قبل ، بل خيراً مما تعودوا أن يروني في الأيام الأخيرة . فقد ذهب عني الذهول ، وفارقت الوجوم ، واستقرت عيناى وهذأنا واستقامتا ، فليستنا تضطربان ولا تقدحان الشرر أو ما يشبه الشرر ، ولا تنظران هذه النظرات التي كانت تخيف مني وتثير في النفوس من حولي شكاً وريباً وإشفاقاً . عدت إلى هدوء غير مألوف ، وانطلق لساني بالحديث ، بل تردد الالبسام على شفتي ، وأخذ الإشراق يتفرق في وجهي من حين إلى حين ، حتى لم يشك أحد في أن هذا الفرح الطارئ قد شفاني مما كنت أجده ، وردت إلى ما كان قد فارقت من اعتدال المزاج .

ثم نُصبح وإذا الزائرون قد أقبلوا ، وإذا النشاط المبتسم السعيد يملأ الدار جميعاً ، وإذا أنا أشارك من حولي في مظاهر ما يجحدون من فرح وبهجة ، وأنفرد وحدي بلوعة لا تنقضي وحزن لا تخمد ناره .

يا لقوة النساء ! لقد آمنت منذ ذلك الوقت بأنها لا حد لها . يا لمكر النساء ! لقد آمنت منذ ذلك الوقت بأنه لا آخر له ولا قرار . يا لقدرة النساء على الكيد وبراعتهم في التلوين ونهوضهم بأثقل الأعباء وثباتهم لأفدح الخطوب !

لقد أكبرت نفسي ، بل أكبرت المرأة في نفسي حين رأيته اضطرب في هذا التمثيل وكأنني اضطرب في الحياة الواقعة لا يأخذني أحد !

ولا آخذ نفسي بتصنع أو تكلف أو محاولة ، وإنما أنا أكذب وأنافق وأصطنع الرياء وأخفي ما أخفي وأظهر ما أظهر ، في سهولة ويسر ، كما أنفَس وكما أفتح عيني وأغمضها ، وكما آتي ما تدفعني الغريزة إلى أن آتي به من الحركات ! ومع ذلك فبعض ما عرض لي من الخطب وبعض ما ألم بي من الهم كان خليفاً أن يحول بيني وبين الحياة فضلاً عن الحياة الهادئة المطمئنة ، فضلاً عن هذه الحياة المضاعفة التي يملؤها الكذب ويجري فيها الرياء كما يجري الماء في الغصن الرطب .

١٧

وانتهى النبا إلى خديجة ، كما تنهى هذه الأنبياء إلى الفتيات من بنات الطبقات الوسطى ، ظاهراً خفياً ، وواضحاً غامضاً ، يلقي إليها ويسر عنها ، تُنبأ به وترد عنه ، فتبتهج له نفسها وتستحجي مع ذلك من أن تتحدث فيه ، ويمتلي له قلبها غبطة وسروراً ، ويفرض عليها الأدب مع ذلك أن تتكلف الكتابة والحزن كلما ذكر لها ، وأن تعرض بوجهها إعراضاً كلما هم أحد أن يشير إليه من قريب أو بعيد ، وأن تفر منه فراراً إذا كان الحديث فيه إليها صريحاً جلياً . على أن صديق وإن تكلفت من ذلك ما يتكلفه أمثالها مع من كان حولها من أهل الدار ، قد أثرتني بما كانت تؤثرني به في كل شيء . من هذه الصراحة الساذجة الحلوة ! فلم تخف عليّ ما كان يملأ قلبها من فرح وغبطة ، وما كان يغشي نفسها من قلق وإشفاق . وما أكثر ما تحدثت إليّ وما أكثر ما تحدثت

إليها في أمر الخطبة والزواج ، وفيما يحيط بالخطبة والزواج من هذه الأمور التي لا تحصى ولا تستقصى ! وما أكثر ما تحدثنا عن خطيبها المهندس وعما نعرف وما لا نعرف من صفاته وأخلاقه وأسرته ووثوقه ! وما أكثر ما أغرقنا في الأمل ومضيئنا مع الخيال ! وما أكثر ما فصلنا الأمور تفصيلاً ، وأطلقنا الوقوف عند الدقائق والصغائر من الأمر ، فتحدثنا عن الثياب التي ستشتري ، وعن الحلوى وعن الأثاث ، وأقمنا القصور وأثقنا إقامتها إتقاناً !

وأنا في هذا كله أجازي صديق مجارة يسيرة لا أتكلف فيها ولا أحاول حتى لم تشك لحظة في أنني أشاركها في أمر الخطبة والزواج كما كنت أشاركها قديماً في أمر اللعب ، وكما كنت أشاركها إلى أمس في الدرس والقراءة والاستظهار . بل نحن نتحدث فيما سيكون غداً أو بعد غد حين يتم هذا الأمر ، وحين تستقر خديجة في دارها وتصبح ربة بيت . ونتحدث في الدرس الذي لا بد من أن نغضي فيه ، وفي القراءة التي لا نستطيع أن ننصرف عنها ، ونرتب أمرنا على أنني سأنتقل مع خديجة إلى حيث نكون ، وسأشاركها في حياتها مهما تكن الظروف . وما الذي يمنع من ذلك وما دخلت هذه الدار إلا لها ، وما عملت في هذه الدار إلا معها ، وما استطاعت في يوم من الأيام أن تقبل شركة أو ترضى من أهلها أن يكلفوني بما لا يتصل بها من الأمر ، كنت لها طفلة وكنت لها فتاة ، ويجب أن أكون لها حين تصبح زوجاً وربة بيت .

نعم ! ما أكثر ما تحدثنا في هذا كله وأنفقنا فيه الساعات أثناء النهار حين كان من حولنا بضطربون فيما بضطرب فيه أهل الدار حين

تهدأ لإقامة الأفراح ، وأنفقنا فيه الساعات أثناء الليل حين كان كل شيء من حولنا يسكن هذا السكون العميق الذي تمتاز به ليالي الريف ! ولكن نفسي في هذه الساعات كلها لم تكن هادئة ولا مطمئنة ، وإنما كانت ثائرة جامحة . وكنت كثيراً ما أكف عن الحديث لأفكر في هذا الشخص الغريب الذي يحترق تقمين متناقضتين أشد التناقض : نفساً تبهج وأخرى تبتس ، نفساً تعد وأخرى توعده ، نفساً تمضي في الحديث بما يسر ويضر وأخرى تمضي في تدبير ما يحزن وينزع .

وتنقضي الأيام الأولى ، ويكون اللقاء ويكون التراور ، ويكون الامتحان لخديجة بالنظر والحديث ، ويدنو كل شيء من غايته ، ويستحيل الجو إلى الوضوح والجلاء ، وتتفمس أهل الدارين في جو كله سرور وغبطة وأمل ورجاء في غد .

ويدنو أهل الدارين من هذا اليوم الذي تتكشف الأمور فيه عن نفسها ، وتصبح الخطبة فيه أمراً واقعاً يعرفه كل الناس ، وأنا مؤثرة للصمت آخذة فيما يأخذ فيه أهل الدارين من ألوان النشاط . ولكني أجلس في ساعة من ساعات النهار وقد آذنت الشمس أن تنحدر إلى مغربها ، وانتشر في الجو هذا الحزن الضئيل اليسير الذي ينتشر فيه مع الأصيل فيهدئ من نشاط النفوس ، ويخفف من وجيب القلوب ، ويبتلى على الآمال المشرقة بعض الشحوب ، ويجري في الأصوات الفرحة نغمة لا تخلو من كآبة ، أجلس في ساعة من هذه الساعات مقبلة على ربة البيت ، حتى إذا بلغت غرفتها دخلت لا أستاذن ، ثم أغلقت الباب من دوني لا أستاذن ، ثم وقفت واجهة بين يدي سيدتي لا أقول شيئاً ، وإنما تنحدر

الدموع غزيرة على خدي ، وسيدتي تنظر إلي في غير إنكار وفي غير لوم ، كأنها قد فهمت عني ما أردت أن أقول ، وكأنها قد استجابت لدعائي ، فهي تفرق بي وتؤكد لي أنني لن أفارق خديجة ولن يحول بيني وبينها حائل ، وأني سأنتقل معها حين تنتقل ، وسأسافر معها حين نسافر ، وسأقيم معها حين تقيم ، وأني أحسن حفظاً منها مي ! فهي مضطرة إلى أن تفارق ابنتها ، أما أنا فلن أفارق سيدتي وصديقي . . .

وأنا أسمع هذا الحديث وأفهمه ، ولكنه لا يبلغ مني ولا يؤثر في نفسي ، فإلهذا الحديث أقبلت . وما حاجتي إلى أن أسمعه من ربة البيت وقد سمعته ألف مرة مرة من خديجة ! ومتى استطاعت ربة البيت أن تفرق بيني وبين ابنتها في جد أو لعب ! كلا ! لم أقبل لأسمع هذا الحديث ، بل لم أقبل لأسمع شيئاً ، وإنما أقبلت لأقول شيئاً ، وقد قلت في صوت هادئ تبلى هذه الدموع المنحدرة المهمة . وكنت أقدر أنه سيقع من هذه المرأة موقع الصاعقة ، وأني قد دخلت هذه الغرفة في هدوء ولن أخرج منها إلا في عنف واضطراب . ولكني قد أتممت ما أردت أن أقول ، وانتظرت ثم نظرت ، فلم أسمع ولم أر على هذه المرأة اضطراباً ولا دهشاً ولا شيئاً يشبه الاضطراب والدهش . ثم هممت أن أنصرف خجولة مستخفية ، ولكنها وقفتني بالإشارة وتركتني لحظة لا تقول لي شيئاً ولا تلي إلى لحظة ، ثم قالت في صوت عادي مترن : وهل أنبات خديجة من هذا بشيء ؟

قلت وقد أغرقت في البكاء : كلا يا سيدتي ! وما ينبغي لنفس خديجة الطاهرة البريئة أن يلقي إليها حديث هذا الإثم . ولولا أنني

أوتر خديجة وأوتر الأسرة كلها لما أنبأتك بشيء ، ولما أفضيت إليك بسر هذه الأسرة البائسة التي تعيش في يومها المظلم في أقصى الريف .
قالت وقد نهضت إلى متاثلة : لا بأس عليك ! فلن يذاع سر أسرتك . ثم ضمتني إليها وقبلتني وهي تقول : لقد أنقذت ابني من شر عظيم .

١٨

قلت : نعم يا سيدتي ، قد أنقذت خديجة من شر عظيم ، ولكنك تربيين معي أن لا مقام لي في هذه الدار منذ الآن ! فكل شيء يأمرني بالتحول عنها . قالت وقد أحست في صوتها أنها مشغولة البال منصرفة النفس عما يمكن أن أبسط لها من حديث : وما ذاك ؟ قلت مقتصدة متعجلة مضمرة أني إنما أتحدث لأعتر ع ما سأتى من الأمر : لم أعود يا سيدتي أن أخفي على خديجة شيئاً أو أكنم من دونها سرّاً ، وما ينبغي بل ما أستطيع أن أبقي معها مستأثرة بعلم ما أعلم طاوية عنها مسعاى عندك وستعلم خديجة من غير شك أن هذا الأمر الذي بدئ فيه قد أهمل وعدل عنه ، وسيكون له في نفسها أثر حاد ، ما أشك في ذلك ، ولست آمن نفسي حين أحاول ما يجب عليّ من تسليتها وتغزيتها أن أبوح لها ببعض الحديث . والخير كل الخير في أن أتعجل الرحيل . وما دام الله قد قضى على الشقاء فلا بد من الإذعان لما قضى الله . قالت : وأين تريد أن تذهبي ؟ قلت : لا أدري ! وإنما يجب أن أذهب أولاً ، فأما إلى أين

فشيء سأسئله بعد ذلك . . !

ولم يرتفع ضحى الغد حتى كنت بعيدة عن دار المأمور قريبة منها مع ذلك ، ألحظ من كتب ما يكون بين هاتين الأسرتين اللتين لم تتصل بينهما الأسباب إلا لتقطع ، ولم تنشأ بينهما المودة إلا لتستحيل إلى عدااء أو شيء يشبه العدااء . ولم أجد في ذلك مشقة ولم أتكلف فيه عناء ، وإنما تحولت من دار إلى دار ، وقضيت يوماً أو بعض يوم عند هذه المرأة التي تحدثت عنها في أول هذه القصة ، عند زنوبة تلك التي عرفتها في بيت العمدة وقضيت من حديثها ما قصصت .

أقبلت عليها نحو الظهر ، فألقيتها قائمة تكيل بعض ما تكيل من الحب ، وأمامها نسوة يشترين منها : هذه تشتري القمح ، وهذه تشتري الذرة ، وهذه تشتري النول ، هذه تشتري نقداً ، وهذه تشتري نسيئة ، وزنوبة تحتم في هذه وتلك صائحة مسرفة في الحركة ، لا يستقر لسانها في فمها ، ولا يستقر وجهها أولاً يستقر ما يختلف عليه من الصور والأشكال ، فهي عابسة حيناً ، وباسمة حيناً ، وهي تفعل بعينيها وشففتها وحاجبيها الأفاعيل وتدل بها على ما قد يعجز الكلام عن أن يدل عليه ، وهي تسب هذه جادة وتسب هذه مازحة ، وهي تلمح حيناً وتصرح حيناً آخر ، وهي تمضي في ذلك والنسوة يسمعن لها راضيات عنها معجبات بها ، مشاركات لها في بعض ما تقول وفي بعض ما تأتي من الحركات ، وأفراد من شباب المدينة قد اجتمعوا غير بعيد ينظرون ويسمعون ، ثم يتبادلون فيما بينهم أحاديث فيها الدعابة والرضا ، وفيها اللذة والإعجاب .

فلما رأيته زئوبه لم تكفني ، ولكنها لم تغل في الترحيب بي ، وإنما نظرت إلى من الرأس إلى القدم ، ثم قالت في صوتها النحيب : ها أنت ذى تقبلين ! لقد بعد العهد بك منذ التقينا في بيت العمدة ، ولكني كنت أنتظرك ، وما شككت في أنك ستأتين إلى هذا البيت وستقومين مني هذا المقام . قلت : فهل أتيك الودع بهذا ؟ قالت : وما يدريك ! لعل الودع قد أتاني من أمرك بما تعلمين . وبما لا تعلمين . اصعدى إلى هذه الغرفة من فوقنا فتخفي من حقيقتك واستريحى ، فسأفرغ لك بعد حين ، ولا تتعجلي الطعام إن كنت جائعة فإن وقت الغداء لم يحن بعد . وإن كنت أقدر من أمرك أنك لا تحفلين بالوقت فيما يتصل بالطعام ، فما أرى إلا أنك تأكلين في كل وقت . هذا شأنكن أيتها الفتيات تشغلن ببطونكن أكثر مما تشغلن بأى شيء آخر . ومن يدري ! لعلكن تشغلن . . .

فقطعت عليها حديثها بالانصراف عنها والتصعيد في السلم إلى الغرفة التي دلتني عليها ، ولكنها تبعتني مع ذلك بالسخرية والدعابة ، وأخذت تقول : اهربي ، اهربي ، وجدي في الهرب ، إن أذنك النقيتين البريثتين لا تستطيعان أن تسمعاً لما ألقى من حديث . إنك تخافين من احمرار الوجه واضطرابه . لن نخدعيني وإن استطعت أن نخدعنى غيرى ، فلأنك لتحبين هذا الحديث وتخوضين فيه وفي شرمه مع أترابك من الفتيات ، ولكنكن تصنعن الحشمة وتتكلفن الحياء . على أنها لم تمض في هذا اللغو إذ لم تأنس استماعي لها وانصرافى إليها فمضت فيما كانت فيه من بيع وكيل ومن دعابة بالوجه واللسان .

وفرغت لي بعد ساعة ، فأقبلت على هادئة باسمة ، تسألني عن أمي وأختي وأجيبها عن أسئلتها بما أريد ، فتصدق ما تصدق وتكذب ما تكذب ثم قالت : وأنت الآن تريدان العمل ، فأين تحبين أن تعملى ؟ وكيف تريدان أن تعيشى ؟ إن لك من جسمك هذا الجميل ، ووجهك هذا الوضىء ، ومنظرك هذا الذى يسحر الشبان ويغلب عقول الرجال ، ما يكفل لك حياة فيها ثروة وغنى ، وفيها نعيم وترف ، وفيها لذة ومتاع ، وفيها تسلط وسيطرة واستخفاف وعيش بعقول الشباب والشيب . قلت مغضبة : دعيني من هذا الحديث ، ولست أريد منك شيئاً ، وما أقبلت أستمعك على شيء ، وإنما أملت بك محبة لك قبل أن أترك هذه المدينة فلانى عنها مرتحلة . قالت وقد أدارت عينها وأسبغت على وجهها شكلاً مضحكاً تملؤه السخرية ويشيع فيه التكلذيب والاستهزاء ، وأرسلت من فيها شيفاً منكراً أتبعته بشخير منكراً أشك في أن الشباب المجتمعين غير بعيد قد سمعوه فتضاحكوا له ، واتبى إلينا ضحكهم حيث كنا ، فزادها مرحاً ونشاطاً ، وملاأتى خيراً واستحياء ، قالت : لا ترأعى لا ترأعى ، فلن أعرضك للبيع كما كنت أعرض هذه الحبوب آنفاً ، ولن أكرهك على ما لا تحبين ، ولكنى أعرض عليك ما عندي . فأنت تكرهين هذه البضاعة أو تظهرين كرهها الآن ! فعندي غير هذه البضاعة ، ولكن ثنى يا ابنتي أنك راجعة إلى قطالبة منى ما ترفضين الآن . لست الأولى ولن تكونى الأخيرة . . . تريدان عملاً كله جد كهذا الذى كنت فيه عند المأمور ، فلم تركت بيت المأمور ؟ ولكن هذا من أسرارك ، وإن لم يكن الفتيات أمثالك على أمهاتهن من أمثالى مر ؟ فقد أحب أن

أعلم من أمرك جلبيه وخفيه لأوصي بك عن علم . أخرجت سارقة ؟
 أم خرجت لسوء العشرة ؟ أم خرجت للكذب ؟ أم خرجت لكثرة الصياح ؟
 أم غضبت سبيلك ؟ أم أغضبت سيدتك ؟ أم أغضبت بنت المأمور ؟
 أم أغضبتهم جميعاً ؟ وكيف خرجت من هذا البيت في هذا الوقت ؟
 وهل تعلمين أن في المدينة مأمورين أو يثنين كبيت المأمور ؟ وأنت
 تخرجين في الوقت الذي يستعد فيه البيت للأفراح والليالي الملاح ،
 وتترلين عما كان يحق لك أن تطمعي فيه من العطايا والهبات ! فليس من
 شك في أنهم كانوا سيمنحونك كسوة فاخرة . وليس من شك في أن كثيراً
 من النقد كان سيقع إليك من هذا ومن ذاك ومن هذه ومن تلك ، فكيف
 تركت هذا كله ؟ أتركته راضية ؟ ولماذا ؟ أم أكرهت على تركه ؟ ولماذا ؟
 تكلمي ! إني لا أحب الغموض ، ولا أطمئن إلى الأسرار ، ولا خير في
 التمع والإباء والكتمان ، فما تخفيه اليوم سأظهر عليه غداً وسأظهر عليه
 قبل أن تغيب الشمس ، ولست بزئوبة إن خفيت على أسرار فتاة مثلك
 لم تبلغ العشرين ، وأنا أعلم من أمر هذه المدينة وأسرار أهلها وأخبار
 الأسر التي تقيم فيها أو تفقد عليها أو ترحل عنها ما أعلم . تحدثي ! كيف
 خرجت من بيت المأمور أو كيف أخرجت منه ؟

وأمام هذا السيل المنهمر من الحديث ، وأمام هذه الأسئلة الملحة
 وهذا الحرص الشنيع على الاستطلاع واستكشاف الأسرار ، لم يسعني
 إلا أن أنهض وأعمد إلى حقيتي فأحملها وأمضي نحو السلم ، ولكنني لم
 أكد أبلغه حتى رددت عنه رداً ، وحتى كانت حقيتي قد خطفت مني
 خطفاً ، وحتى كانت زئوبة قد أحاطتني بذراعيها المنكرتين ، وأخذت

تلح عليّ بالضم والتفجيل تهدئي وتترضاني ، وأنا لذلك كارهة أشد
 الكره ، وعلى ذلك ساخطة أشد السخطة ، ولو استجبت لأنفسى لصحت
 مستجدة طالبة الغوث ، فقد أخذت أمقت نفسي وألومها ، وألعن هذه
 اللحظة التي خطر لي فيها أن آوي إلى دار هذه المرأة ريثما أمضي أمرى
 بعض الشيء وأدير لي عملاً أمضي فيه .

ولكن زئوبة ملحة عليّ بالرفق والملاطفة ، وقد خفت صوتها وعذب
 حديثها ، وأخذت تتحدث إلى بأمور ليس بينها وبين ما كنا فيه صلة ،
 كأنها أعرضت عن كل ما من شأنه أن يسوقني أو يروغني أو يقلقني عن هذه
 الدار التي اقتنعت زئوبة بأن لا بد من أن يطول فيها مقامي أياماً أو أسابيع .
 ثم أنظر فإذا نحن قطعنا وقتاً غير قليل في حديث هادئ فيه الجدل
 وفيه المزح ، وإذا أنا آنس إلى هذه المرأة وأطمئن إلى ما أحس من
 عطفها ، وأنظر فإذا حياتنا قد مضت في هذه الساعات بسيرة قد زال
 منها التكلف ، وإذا نحن قد تغدينا معاً ، وإذا كل واحدة منا قد أخذت
 تتحدث إلى صاحبها في شيء من السذاجة والثقة غريب ، وإذا نحن
 نستحضر آلامنا وأحزاننا ، وإذا كل واحدة منا تستكشف في صاحبها
 من وراء هذه الصورة الظاهرة التي يعرفها الناس صورة أخرى خفية من صور
 البؤس وتمثالا مستتراً من تمائيل الشقاء ، وإذا كل واحدة منا ترى
 لصاحبها أو تتخذ الرثاء مظهراً من مظاهر الرثاء لنفسها ، وإذا نحن
 نشترك في البكاء ونعاون عليه كما كنا نشترك منذ حين في الضحك
 ونستبق إليه . ولم يكد ينصرم النهار ويقبل الليل حتى كانت الألفة بيتنا
 قد انتهت بنا إلى هذا الطور الذي يطمئن فيه الإنسان إلى الإنسان وإن

أحفظ بشيء من الاحتياط . . فلم أظهر زنوبة على مري ، ولكني
أنبأها بأن أختي قد قصت في الغرب ، وزعمت لها أني إنما خرجت من
بيت المأمور في إثر مغاضبة كانت بيني وبين الخدم ، ثم لم أظفر بما
كنت أراي أهلاً له من الإنصاف . وقد سمعت مني ما أقول وهي إلى
التكذيب أقرب منها إلى التصديق ، ولكنها تجنبت الجدال والإلحاح فيه ،
وأظهرت الرثاء لي والعطف علي ، ووعدتني بأنها ستجد لي عملاً شريفاً
مريحاً إذا كان القدر ، وألحت علي في أن أقضي الليل معها وقد فعلت ،
وقد أنفقنا جزءاً غير قليل من الليل في مثل ما أنفقنا فيه النهار . فلما
أصبحنا غابت غني ساعة أو نحو ساعة ، ثم عادت إلى مهلة مشرق
الوجه وهي تقول : لقد وجدت عملاً ما أشك في أنه مريضيك . ستعملين
حيث كانت تعمل أمك قبل أن ترحل عن المدينة في بيت فلان ،
أتذكرين اسمه ؟ أتعرفينه ؟ إنه رجل من أصحاب الثراء واليسر ، وقد
لا تجددين في داره مثل ما كنت تجددين في دار المأمور من الرف ،
ولكنك ستجددين عنده سعة ويسراً ، ودماً في الخلق ، وتبسطاً في
المعاملة ، فزوجه كريمة النفس ، وبناته صالحات لم يفسدهن الذهاب إلى
المدارس ولا استقبال المعلمين . فهذا الرجل أمير يضمن بيناته على هذا
الفساد ، ويرسل أبنائه كلهم إلى القاهرة ليتعلموا فيها وليصبروا فيما
بعد موظفين كباراً كالمأمور والقاضي والمهندس . وإذا أقبل الصيف وعاد
هؤلاء الشبان من القاهرة امتلأ البيت فرحاً وسروراً ، وأصبحت أيام
الأسرة كلها أعياداً ، وازداد حظ الخدم من الرغد والسعة ولين العيش .
وأنا كثيرة الاختلاف إلى هذا البيت منذ استقرت هذه الأسرة فيه منذ

أعوام وأعوام ، وقد ربيت أبنائها وبناتها ، وقد تبنت منهم واحداً
بعينه هو الآن شاب نجيب سيكون بعد قليل موظفاً كبيراً ، وهو يعرف
لي هذا الحق ويحبني ويكرمني ويؤثرنى بالخير والمعروف ، قلت :
وكيف تبنيته ؟

قالت وهي تضحك : أتجهلين هذه العادة ؟ لقد أخذته حين كان
وليداً فأدخلته من بين ثوبي وبينى ، أدخلته من جيبى وأخرجته من تحت
ذيلي ، فأصبحت كأني والدته ، وأصبح لي عليه حق الأمهات وله على
حق الأبناء . ستعملين في هذا البيت وسترضين ، وسأراك كل يوم
إذا أصبحت وسأراك إذا أمسيت ؛ فليس بين هذا البيت وبيننا
إلا خطوات ، وأنا أعمل فيه ساعات من نهار . وقد تحدثت عنك إلى
ربة البيت فعرفتكم وعرفت أمك وأختك وقيلتك راضية مسرورة ،
فهل بنا فقد تركتها على أن أعود بك إليها بعد لحظات . ولست
أختي عليك أنها كرهت بعض الشيء استخدامك بعد أن خرجت
من بيت المأمور لما بين الأسرتين من مودة ، ولكنها لم تطب نفساً عن
تركك عرضة لما يتعرض له الفتيات من الشر بعد أن عرفت أمك
وحدث عشرتها . فهل بنا فقد تناج لنا أوقات طوال يكثر فيها بيتنا
الحديث .

ونهضت معها وليس في نفسي ريب في أنها قد نصحت لي وأخلصت
في النصيح والود ، وفي نفسي بعض الأمل في أنها ستعيني يوماً ما على
تحقيق ما أريد .

وأقبلت معها على بيت من بيوت الريف هذه التي يظهر فيها الثراء ،
ويحس أهلها سعة العيش ، ولكنهم على ذلك لا يأخذون من ترف
الحضارة إلا بأيسره وأهونه ، يحتفظون بما ألفوا من هذه الحياة الريفية
التي لا دقة فيها ولا رقة ولا افتتان في إرضاء الذوق ، والتي تكره النظام
وتتفر منه ، وترى في الترتيب والتنسيق تكلفاً وجهداً لا خير فيهما ولا
حاجة إليهما . بيت من هذه البيوت التي لا يكاد يدخلها الداخل حتى
يحس أن أهلها ميسورون ولكنهم فلاحون كما يقال ؛ فالمتاع كثير ولكنه
مهمل مضطرب لم ينظم ولم ينسق ولم يهيا ، وإنما حمل إلى الدار ثم استقر
فيها كما استطاع أن يستقر .

والفرق فيها ملغى أو كالملقى بين حجرات الاستقبال للسيدات وحجرات
الاستقبال للسادات ، بل بين حجرات الاستقبال وحجرات الطعام ،
إنما يستقبل أهل الدار حيث توجد المقاعد والكراسي ، ويأكل أهل
الدار حيث يشق لهم أن يأكلوا ، إلا أن يطرقهم طارق أو يلهم بهم ضيف
فيكون الطعام حيث يكون الاستقبال ، ثم يكون نوم الطارق أو الضيف
حيث يكون الطعام والاستقبال أيضاً .

في البيت مقاعد وكراسي ، ولكن أهل الدار يؤثرون الجلوس على
هذه الحصر والأبسطه قد ألفت على الأرض إلقاء . فإذا طرق الطارق
أو أقبل الضيف عرفت الكراسي والمقاعد أن لها في البيت منفعة وعملاً .

والفرق ملغى أو كالملقى بين من في الدار من الناس وما في الدار من
الحيوان على اختلافه ؛ فالدجاج مطلق يمشي حيث يشاء ويستقر هنا
ثم يستقر هناك حاملاً معه أفذاره وآثاره ، ولا يحصى منه إلا حجرة
أو حجرتان ولا تحديان إلا في مشقة وتكلف للجهد . وقد لا يكره أهل
الدار إذا اشتد القيظ أن ينفقوا مساءهم تحت السماء قريباً من البقرة
أو الجاموسة أو ما إليهما ، يطلبون النسيم حيث يجدونه ، لا يتكلفون
في ذلك ولا يتصنعون ، ولا يجدون في مخالطة الحيوان حرجاً ولا أذى .
هي الحياة السهلة البسيطة الغنية همت أن تتحضر وأن تترف ، فأخذت
من الحضارة والترف بحظ ، ثم لم تستطع أن تتقدم فاكنت بما أخذت ،
ووقفت عند حد من الحدود لا تعدوه .

ولم أكد ألقى ربة البيت ومن حولها بناتها وخادماها يعملن وتعمل
معهن ، يتحدثن وتشاركهن في الحديث ، حتى أحست أنني
سأجد في هذه الدار راحة وتعباً ، وسألقى فيها تعباً وبؤساً . وقد صدق
حسي ، فزعمت في هذه الدار وشقيت : نعمت بهذه السذاجة التي
ردتني إلى شيء يشبه حيائي في أقصى الريف ، وخلطتني بأهل الدار
كأنني واحدة منهم ، وألغت ما بين السادة والخدم من الفروق أو كادت
تلغيه . ولكن أي حياة يموت فيها العقل أو يأخذها شيء كالملوت !
لم آسف على ما فقدت من الترف ، ولعل لم آسف على ما فقدت من
صحة نخديجة ؛ فقد استبأست من صحبتها واتخذتها - سواء أردت
أم لم أرد - لنفسى خصماً ، حاربتها وإن زعمت أنني كنت أدافع عنها ،
وظلمتها وإن زعمت أنني أنقذتها ، وانتصرت عليها وإن زعمت أنني

لم أسف لما فاتني من صحبتها فلم يكن من ذلك بدء ! ولكن أي أسف وأي حزن وأي لوعة وحسرة ، وأي ندم يذيب القلب ويملا النفس كآبة ويأساً هذا الذي كنت أجده إذا أصبحت وأمست وقضيت الليل والنهار بين عمل باليد أو حديث مع أهل الدار لا متاع فيه للعقل ولا لذة فيه للقلب !!

أين القراءة مع خديجة ، وأين القراءة منفردة ؟ أين هذه الكتب العربية وهذه الكتب الفرنسية التي كنت أنفق معها أكثر النهار وشطراً من الليل قارئة أو متحدثة عما قرأت أو متمنية لاستئناف القراءة ؟ لقد تركت هذا كله في بيت المأمور ، وأقبلت إلى بيت لا يقرأ من أهله أحد ، إلا رب البيت ؛ فإنه يقرأ إذا أصبح ، ويقرأ إذا أمسى ، وأنا أسمع في الصباح والمساء ، وأكاد أحفظ عنه ما يقرأ . وما يعني بما يقرأ ! إنما هي أوراده وأدعيته ، ودلائل الخيرات . وأين أنا من هذا ، وأين هذا مني !!

ولقد خرجت من بيت المأمور لم أستصحب كتاباً ، وما كان لي أن أستصحب كتاباً ، وإنما كانت كلها كتب لخديجة . ولقد سألت نفسي ألف مرة ومرة : أين يمكن أن أظفر بهذا الكتاب ؟ فليس في هذه المدينة من مدن الريف كتب تباع إلا هذه التي يعرضها الطوافون في أيام السوق أو في يوم الخميس من كل أسبوع ، يعرضونها في السوق ويعبرون بها على الدور ، وليس لي فيها أرب ولا منفعة ، إنما هي قصص لا تعجيني ولا تروقي وسحر لا أحسنه ، وصلوات دينية لا أعرف منها قليلاً ولا كثيراً .

أين هذه الكتب المترفة ذات الطبع الجميل والجلد الأنيق ، هذه التي تأتي من القاهرة والتي كنت أجد اللذة والمتاع حين آخذها في يدي أو حين أنظر إليها ؟ أحبل بيني وبينها آخر الدهر ؟ أقضي على أن أرد كما كنت فلاحاً من بنات الريف تنفق نهارها في هذا العمل الآلي الذي لا يكاد يفرق بينها وبين ما يحيط بها من النبات والحيوان ؟ كلا ... !

هؤلاء فتيان الأسرة قد أقبلوا من القاهرة ، وقد رأيتهم يفرغون حقائبهم . فما أكثر ما رأيتهم يستخرجون منها من الكتب ذات الأحجام المختلفة المتباينة ، منها الضخم ومنها النحيف ، منها متن الطبع ومنها ما أهمل طبعه إهمالاً ، منها ما جلد في عناية وما ترك على حاله التي خرج بها من المطبعة ! ولكن أين مني هذه الكتب ؟ وكيف السيل إلى النظر فيها ؟ بل كيف السيل إلى الوصول إليها ؟ هنا حدثني نفسي بما لم تحدثني به قط ، فأنكرت حديثها بعض الشيء ، ولكني لم ألبث أن عرفته وقبلته واطمأنتت إليه ثم صممت عليه نصيباً . وأي بأس في أن أختلس الكتاب اختلاساً فأنظر فيه وقتاً طويلاً أو قصيراً ، ثم أرده إلى مكانه لم يمسه بأس ولم يصبه مكروه ؟ أسرقه هذه ؟ أأثم هذا الذي أنا مقدمة عليه ، إن وجدت إلى الإقدام عليه سبيلاً ؟ والله يشهد ما سرقته ولا فكرت في السرقة ، وما اختلست ولا فكرت في الاختلاس إلا هذه المرة . والله يشهد ما لمت نفسي على ذلك ولا أشققت عليها من تورط في الإثم أو تعرض للعقاب ، وإنما قضيت أسابيع غريبة فيها مهارة لم أكن أعرف لنفسى منها حظاً ، وفيها خوف وإشفاق ،

وفيها بين ذلك لذات لن أنساها . فكم خدعت أهل الدار ، وكم تغفلهم ، وكم اختلست الكتاب من هذه الكتب فأخفيت بيني وبين ثوبي ، ثم انحزت به إلى حيث اتخذت لنفسى مأماً لا أخشى أن يعثر على فيه ، ثم أخذت أقلب صفحاته وألقى عليه نظرات طولاً أو قصاراً تغرينى به أو تصرفنى عنه ، وأنا أجد لهذه المخادعة ولهذا الخوف وهذه القراءة لذة غيرت حياتى تغيراً وكادت تصرفنى عن هذه الخواطر التى كانت تصاحب نفسى وتملأ قلبى وترسم أمام عيني بيت المأمور وبيت المهندس صورة خديجة وصورة هذا الشاب . نعم ! كادت هذه الحياة الجديدة تصرفنى عن هذا كله ، لولا حديث سمعته وأنا أطوف بألوان الطعام وأقداح الماء على سادى فى ليلة من هذه الليالى : سمعت حديثاً عن المأمور اضطربت له نفسى واضطراباً ، ولولا أنى أنفقت جهداً عنيماً لظهر هذا الاضطراب ولسقط من يلى ما كنت أحله من آنية ، فقد نقل المأمور من المدينة إلى مدينة أخرى فى أقصى الأرض مما يلى البحر ، وكان هو الذى طلب هذا النقل وصعى فيه وتوصل إليه بفلان وفلان . والناس يهيمون بأنه إنما فعل ذلك ليفر بابتته من جوار المهندس الذى كان قد خطبها ثم قطعت الخطبة . والناس يختلفون ، فمنهم من يرى أن المهندس هو الذى قطع الخطبة لأشياء بدت له ، ومنهم من يزعم أن المأمور هو الذى رفض الخطبة لما تبين من سوء سيرة هذا الشاب .

سمعت هذا واضطربت له ، وكظمت عواطفى وأكرهت نفسى على الترام الآسن والهدوء ما اضطرتت إلى الخدمة ، فلما أتيت إلى العزلة

أرسلت نفسى على سجيئها فقضيت ليلة ساهرة حائرة مفكرة محزونة . ولكن الصباح لم يسفر حتى أسفر معه للنفس أمل لا يخلو من حزن ولكنه أمل على كل حال ، من أجله أفسدت الأمر على خديجة ، ومن أجله خرجت من بيت المأمور ، ومن أجله نفيت نفسى فى هذه الدار . فقد خلا الجولى فى المدينة ، وأصبح من الممكن أن تتصل الأسباب بينى وبين هذا المهندس الشاب ، وأصبح من الممكن بل أصبح مما لا بد منه أن يكون الصراع بينه وبينى ، فليعلم بعد وقت قصير أو طويل أذهب دم هنادى هدرأ أم لا يزال على هذه الأرض من هو قادر على أن يظفر له بالثأر ويشقى نفسه بالانتقام ؟ ...

٢٠

وقضيت بعد ذلك أسابيع حائرة أشد الحيرة ، مرتبكة أعظم الارتباك ، تضطرب الخواطر فى نفسى وتختلف وتردحم دون أن أقدر على تنظيمها أو أجدرى منفذاً منها إلى هذا الخاطر الذى كنت أطلبه وألح فى طلبه وأريد أن أطمئن إليه . فلم يكن بد من أن أتصل بخدمة هذا المهندس الشاب ، ولم تكن السبيل إلى ذلك ميسرة ، فأنا عاملة فى هذه الدار لا أجدر من أهلها ما يزعجنى عنها أو ما يضطرنى إلى فراقها ، وسكينة عاملة عند المهندس ، لا تجد منه ما يؤذيها ، ولا يجد منها ما يصرفه عنها أو يزهد فيه .

وكنيت أجهد نفسى أثناء هذه الأسابيع لإجهاداً شديداً متصلاً

أنفس مخرجاً لي من هذه الدار ومخرجاً لسكينة من تلك ، وأريد مع ذلك أن أجنب الشر والإساءة ما وجدت إلى اجتنابهما سبيلاً . وكثيراً ما سمعت سادتي يتحدثون أثناء الغداء أو أثناء العشاء عن مبادلة يسعى فيها أكبر أبناء الدار وكان موظفاً في إقليم بعيد ، وكان يريد ويريد أهله أن ينتقل إلى المدينة التي نحن فيها ليعيش بين أهله سعيداً موفوراً ، فكان يسعى في أن يبادل موظفاً في المدينة ليأخذ كل منهما مكان صاحبه . وكان التراضي قد تم بينهما بعد أخذ ورد وبعد سعي وإلحاح ، وكان السعي متصلاً في أن ترضى الحكومة عن هذه المبادلة ، وكان الأمل يدنو حيناً من هذه الأسرة ويعد حيناً آخر ، وكان رب البيت وريته يحرصان على تحقيق هذا الأمل أشد الحرص ويكثران الحديث فيه ، وكانا يتصوران ابنهما وقد عاد إليهما بعد طول الغربة في أقصى الصعيد ، وكانا يهتمان له في أحاديثهما غرفته وينظمان فيها الأثاث ويذكran ما يجب أن يشتري من المتاع ، ويتحدثان بما سيتغير من نظام الدار إذا أقبل هذا الشاب الذي تعلم في المدارس وتعود حياة الرف والنعم ، والذي يتكلم الفرنسية ويتأنق في اللباس ، ولا يأكل كما يأكل أهل الدار جالساً على الأرض إلى هذه المائدة المنخفضة ، عليها هذه الصينية النحاسية البيضاء في الأيام العادية ، وعليها تلك الصينية الصفراء التي لم تكن توضع حتى يسرع إليها الصبيان والشبان يتكلفون قراءة ما كان عليها من بعض النقوش قبل أن يرص الحيز عليها رصاً فيخفي هذه النقوش إخفاء .

نعم ! ولم يكن يأكل بيديه كما يأكل أهل الدار ، وإنما كان

بصطع هذه الأدوات التي بصطنعها المتفرون . وكان سيد البيت وسيدته يتحدثان بذلك منكرين له بأطراف السنهما معجيين به أشد الإعجاب في قلوبهما . وكان الشبان من أبنائهما يسمعون أحاديثهما هذه ويعرفون سخطهما الظاهر وإعجابهما الخفي ، فيسمون صامتين ما أقام أبوهما ، فإذا انصرف لشأنه امتلأت أفواههم بالضحك وانطلقت ألسنتهم بالدعابة ، وأمههم تسمع لهم وتنظر إليهم ، منكرة عليهم بطرف اللسان معجبة بهم في أعماق القلب . وكنت أنا أسمع الأحاديث كلها فأهربها وأطيل التفكير فيها . فهل من سبيل إلى أن تم بين سكينة وبنى مبادلة كهذه التي يراد أن تم بين ابن هذه الدار المنى في أقصى الصعيد وهذا الموظف القبطي المنى في أدنى الأرض ؟ !

ولكن كيف السبيل إلى تحقيق هذه المبادلة ؟ بل كيف السبيل إلى عرضها على سكينة أو التحدث إليها فيها ؟ بل كيف السبيل إلى تعليل هذه المبادلة لسكينة ؟ وما الذي يزعجها عن منزلها هذا الذي نظمته إليه ونسود فيه لا تكاد تدعن لأحد ولا تكاد تلقى من أحد ما يلقاه الخدم من السادة ؟ ما الذي يزعجها عن هذا المنزل ويحملها على أن تنتقل منه إلى هذه الدار التي لا حظ لها من ترف والتي ليس فيها هذا المهندس الشاب ؟ وهب سكينة حنت واطمأنت إلى مثل هذا العرض السخيف ، فكيف يكون تعليل ذلك لسيدها ؟ وكيف يكون تعليل ذلك لسادتي ؟ كلا ! هذه أحلام ليس إليها من سبيل . ومهما أجتهد ومهما أحاول فإن الشر لا ينال إلا بالشر، والإثم لا يدرك إلا بالإثم، ولن أبلغ هذه الغاية التي أسمر إليها حتى أقنم في سبيلها غمرات

وأقرب في سبيلها آثاماً .

لا بد إذن من بعض الشر ، ولا بد من أن أمكر حتى أقصى عن هذه الدار ، ومن أن أكيد حتى تفصي سكينته عن بيت المهندس الشاب . وما أسهل المكر حين تنهأ له النفس ! وما أيسر الكيد حين يطمئن إليه الضمير ! ومتى عجزت المرأة عن أن تبلغ من المكر والكيد ما تريد ؟ لن أجد في تحقيق ما أريد جهداً ولا مشقة إذا رضيت نفسي ما لا بد من أن ترضاه من الشر ، واستباحته ما لم تكن تستيحه من الإساءة والإيذاء .

فأما سكينته فأمرها ميسور . وإنما هي زيارة للبستاني وإغراء له ببعض المال ، واتفاق معه على أن يفسد الأمر على هذه الفتاة ما وسعه ذلك ، حتى إذا انتهى منه إلى ما أحب وأخرجت سكينته من الدار سعى إلى زنوبة من قبل سيده يلتصق بخادمها ، ويومئذ ...

وأما مخرجي أنا من هذه الدار التي أعمل فيها فليس أيسر منه ولا أهون . لقد دخلت الدار ولم تكن في حاجة إلى ، وإنما قبلني أهلها رفقاً بي وعطفاً على وإحساناً إلى ورعاية لعهد أمي . فأنا عندهم ضيف ، أستطيع أن أرحل متى شئت ، وأستطيع أن أقيم ما أحببت . على أن ظروف الحياة لم تضطرنني إلى أن أتكلف الاستئذان في الرحيل والتماس العلل والمعاذير ، وإنما قضت بأن أخرج من هذه الدار إخراجاً وأبذل منها نبذاً . ولاني لأذكر قصة ذلك الآن فأبسم لها ابتساماً ملؤه الحنان والحب . وكثيراً ما ذكرت هذه القصة قبل اليوم فامتلاً قلبي حباً لهؤلاء الناس وحناناً إلى هذه السذاجة التي كانوا يعيشون فيها والتي

كانت تصور لم أمورهم كلها في صورة الجسد الذي لا يشبهه جد ، والتي لا يتحدث بها الناس في هذه الأيام إلا ضحكوا منها ساخرين إن كانوا قساة القلوب ، وابتسموا لها عاطفين إن كانوا يقدرون الذكرى ويحبون الحياة التي لا تكلف فيها ولا رياء .. !

كان شباب الدار يعكفون أكثر النهار على كتبهم هذه التي أقبلوا بها من القاهرة ، يقرءون فيها قراءة متصلة لا يكاد يصرفهم عنها شيء . وكثيراً ما كانوا يدعون إلى طعامهم فيبسطون ، وكثيراً ما كان إبطاؤهم يغيظ أباهم ويملؤه بهم إعجاباً ولم حباً . وكان أهل الدار جميعاً ، وربها أولهم ، مقتنعين أشد الاقتناع بأن هؤلاء الشباب إنما كانوا يعكفون على هذه الكتب حباً للعلم وإثارة للدرس وجداً في التحصيل ، وكانوا يتحدثون فيما بينهم بنشاط هؤلاء الشباب الذين لا يكفهم العمل طول العام الدراسي في القاهرة ولكنهم يعملون أثناء الراحة ويحرمون أنفسهم لذة الرياضة والاستمتاع بشيء من النعيم . وإنما هي الكتب إذا أصبحوا ، وهي الكتب إذا أمسوا ، وهي الكتب إذا آن لهم أن يقبلوا بعد الغداء . ما أشد فتنة العلم لهؤلاء الطلاب الأذكياء الذين يحبونه أشد الحب ويأخذون منه بأعظم الحظ ، ويريدون أن ينبغوا فيه وأن يظفروا بالشهادات في غير إبطاء ، وأن يكونوا موظفين بعد ذلك يتقاضون المرتبات في آخر الشهر ويؤدونها كلها أو بعضها إلى أهلهم !

وكان أهل الدار يجلسون في هذه الأحاديث لذة ، ويطلقون خيالهم فيها إطلاقاً . وكانت سيده الدار تمثل هذا كله وتنوّل في تحقيقه وتعجيله إلى الله بهذا الدعاء الساذج اليسير الذي تجري به

السنة أمثالها من أهل المدن والقرى ، وتكثر في الوعد بالنذور المختلفة لهذا الشيخ وذلك الولي .

وكان رب الدار لا يكف عن التحدث بنشاط أبنائه وعكوفهم على الكتب أكثر النهار وشطراً من الليل ، حتى لقد كان يفيظ أصحابه ويملاً قلوبهم حسداً ، ثم يتحدث بذلك إلى زوجه فيملاً قلبها خوفاً من الحسد والحاسدين . وكان هذا الرجل الطبيب الكريم يجد لذة في أن يختلس الوقت من حين إلى حين ويشير الفرصة التي يغيب فيها أبنائه عن هذه الغرفة التي رصت فيها الكتب رصاً فينسل إلى الغرفة انسلالاً كأنه اللص ، ويقف أمام هذه المائدة أو هذه الموائد التي نظمت عليها الكتب تنظيماً ، ويلقى على هذه الأسفار نظرات ملؤها الإكبار والإجلال ، وقد يمد يده في تحفظ واحتياط إلى هذه الكتب فيمسحها مساً رقيقاً ويمسحها مسحاً يسيراً ، كأنه يتبرك بها ويلتمس عندها ما يلتمسه عند الأولياء والقديسين إذا لقيهم أحياء أو زار قبورهم أمواتاً .

وقد يدفعه حب هذه الكتب وكلفه بها وحاجته الشديدة إلى الاستطلاع إلى شيء من الجراءة ، فيأخذ كتاباً منها وينظر فيه ليحفظ عنوانه وليتحدث به إلى أصحابه إن خرج إليهم ، أو ليقرأ فيه سطرًا أو أسطرًا يفهمها أو لا يفهمها ، وهو يؤثر فيما بينه وبين نفسه ألا يفهمها ، فذلك أدنى إلى الإعجاب وأشد إمعاناً فيما ينبغي للعلم من الرغبة والارتفاع عن عقول العامة والجهلاء ، وهو أدنى إلى ما ينبغي من الإعجاب بهؤلاء الشبان الناشئين الذين يعرفون ويفهمون ويسمعون ما لا يعرف

آباؤهم ولا يفهمون ولا يسمعون . وكثيراً ما كان يظهر هذا الرجل ميلاً فيه كثير من الحياء والتردد إلى أن يحدثه أبنائه ببعض ما يقرءون ويعطوه شيئاً من هذه الكنوز التي يملأون بها قلوبهم وعقولهم إذا أصبحوا وإذا أمسوا ، ولكنه كان شقياً دائماً لا يكاد يلمح لأبنائه ببعض ذلك حتى يجد منهم نفوراً وازوراراً ، فيضطر إلى الصمت والرضا بما هو فيه من جهل وحرمان . وكثيراً ما كان يتحدث إلى زوجه يبخل العلماء وضمهم بالعلم وإثارة أنفسهم بلذاته وثمراته ، يتحدث بذلك مثلاً محزوناً أو ناثراً مغضباً ، فتعزبه زوجه وتهده وترعم له صادقة أو متكلفة أن العلماء إنما يبخلون بالعلم على غير أهله إكراماً للعلم وإشفاقاً على الجهلاء من أن يشق عليهم ما يسمعون ، فيقبل منها ذلك أو يجادلها فيه .

وكذلك كان هؤلاء الشبان وكتبهم بمكان الإعجاب والتقديس من هذه الأسرة الساذجة . ولكن الدار اضطربت ذات يوم أشد الاضطراب ، وفسد فيها أو كاد يفسد كل شيء ، وقضى أهلها يوماً متغصاً كله شر وبأس ، وأمل خائب وظن كاذب . وكنت أنا مصدر هذا البلاء ، فكفرت بخروجي من الدار عما جنبت من سيئة ، وما كان أسعدني بهذا الخروج ! ..

ولم أكن أقل من صاحب البيت كلفاً بالانسلاخ إلى غرفة الكتب والنظر إليها والقراءة فيها ، بل كنت كما قلعت أتجاوز حظ صاحب البيت من هذا كله فأختلس الكتب اختلاساً وأخفيها بيني وبين ثوبي ، وأخلو إليها في حيث لا أرى ساعات تقصر أو تطول ، ولكنها كانت تمتلئ دائماً باللذة والمتاع . وكنت قد لاحظت كتاباً دميم المنظر قبيح الشكل ، ردىء الطبع والورق ، يعكف عليه هؤلاء الشبان عكوفاً متصلاً ،

يستبقون إليه استباقاً ويتنافسون فيه تنافساً ويشدد اختصاصهم فيه ،
ثم ينهون إلى أن يتفقوا على أن يتداولوه فيما بينهم لكل واحد منهم وقت
معلوم . فدفعت إلى أن أعرف هذا الكتاب وأتبع ما يخفيه شكله
الديم وطبعه الرديء وورقه الخثير وجلده المبتذل البالي ، من هذا
السحر الذي خلّب هؤلاء الشباب ودفعهم دفعاً إلى الهالك عليه والتنافس
فيه . وكثيراً ما التفت هذا الكتاب فلم أجده قريب المال بين هذه
الكتب المخصوصة المعروضة ، فتبينت أن هؤلاء الشبان لا يكادون يفرغون
من النظر فيه حتى يخفوه إخفاء . فلم يزدني ذلك إلا كلفاً به وتبعاً له
والخاحاً في البحث عنه . وأعلم ذات يوم أن هؤلاء الشبان مدعوون إلى
الغداء ، وأن الغرفة ستخلو لي ساعات من نهار ، وأني سأستطيع أن
أبحث عن هذا الكتاب ، وقد أقسمت لأجده ولا أنظر فيه ولا أقضيه
معه أطول ما أستطيع أن أقضي معه من الوقت .

وقد انصرف الشبان إلى وبتهم ، وتخففت من أثقال ما كان على من
عمل ، فانسالت مسرعة وشيقة سريعة النشاط إلى الغرفة ، ومضيت في
البحث غير قليل ، وإذا أنا أظفر بما كنت أبتغي . فباللهجة
وباللغة ، وبالسعادة وبالرضا ! هذا الكتاب بين يدي دميم
الصورة قبيح الشكل خثير الورق رديء الطبع ، ولكن اسمه ألف
ليلة وليلة . وأنا أقرأ فيه وأنا أمضي في القراءة ، وأنا أنسى نفسي وأنسى
مكاني . ولكن ماذا أسمع وماذا أرى ؟ هذا باب الغرفة يفتح في
غير احتياط ، وهذا رب الدار يدخل ! فقد كان مثلي ينتظر أن تدخل
له الغرفة ليقف من هذه الكتب موقف الإكبار ، ولينظر إليها نظرة
التقديس ، ولحمد إليها يده ملاطفاً مداعباً ، ثم ليقرأ من أسماها وسطورها

ما يبهر به أصحابه إذا خرج إليهم آخر النهار . ولكنه يراني أنظر في كتاب ،
وفي كتاب لم يتعود أن يراه ! فهو يسألني ماذا أصنع ، وما أنا وهذه
الكتب ؟ وأحاول أنا أن أخفي الكتاب الذي كنت أنظر فيه ، ولكنه قد
أسرع فأخذه من يدي ، ثم زجرني زجراً عنيفاً وطردني من الغرفة طرداً .
على أنه لم يطل المقام في هذه الغرفة وإنما خرج منها بعد قليل
ثائراً ساخطاً ، وأقبل على زوجه وفي يده هذا الكتاب فألقاه في وجهها
إلقاءً ، واندفع في غضب لا حد له وفي شتم لا ينهي
ساخطاً على زوجه المسكين وعلى أبنائه البائسين ، صاباً عليها نذراً
متصلة بالكوارث والأحداث ، معلناً إليها في غيظ عنيف مرة وفي حزن
أليم مرة أخرى ، خيبة أمله في هؤلاء الأبناء الذين كان يظنهم محبين
للعلم مؤثرين له من الكين عليه ، فإذا هم أصحاب عبث وفو وجون ،
وإذا هم ينفقون وقتهم في قراءة هذا الهذيان . ومن يدري ! لعلهم ينفقون
وقتهم في هذا أثناء إقامتهم في القاهرة على حين يظن هو أنهم يجدون
ويعملون ويحصلون العلم . وهو إذن إنما يجحد ويكد وينفق حياته وماله
لنضي أبناءه في هذا السخف وفي هذا اللهو الآثم القبيح . وهم لا يضيعون
وقتهم وجهدهم وجد أيهم وكده وماله وأمله فحسب ، ولكنهم يخربون بيت
أيهم بأيديهم كأنهم يجهلون أن هذا الكتاب لم يدخل بيتاً إلا خربه تخريباً .
ثم يعود الرجل إلى غرفة الكتب فيقلب كل ما فيها تقليباً ، وما
يزال يبحث حتى يظفر بأجزاء الكتاب كلها ، ثم يعود بها متبصراً
ساخطاً معاً ، ثم يمزقها تمزيقاً ، ولا يطمئن حتى يشعل فيها النار !
وقد نغص يوم الأسرة كله فلم يذق الرجل ولا أهل الدار فيه طعاماً .
وعاد الفتيان آخر النهار ، فلا تسل عما سمعوا ولا عما رأوا ، ولا

عن صمتهم حين صمتوا ولا عن قولهم حين قالوا . ولكن التنبهة الأولى والأخيرة فيما أظن لهذا كله هي أنى طردت من الدار طرداً ، ورجعت إلى بيت زنوبة وإلى غرفتها ، فقضيت فيها أسابيع أنتظر ما يجرى به القضاء ، وما تنهى إليه حيلة البستاني الذي ضوعف له الأجر .

٢١

« ستعملين إذا كان الغد يا آمنة ، وستعملين عملاً يرضيك كما لم يرضك عمل من قبله قط . لا تذكرى بيت المأمور ، ولا تذكرى بيت فلان هذا الذى دفعتك الحماسة فيه إلى هذا الذنب العظيم . ستعملين عملاً مريحاً فيه مال كثير ، ونعيم كثير ، ومتاع كثير . ستعملين . . . ستعملين وستسعين . ليتنى كنت مكانك ، ليت سى تعود إلى حيث أتت من العمر . ستعملين وستسعين . . . »

قالت ذلك وهي مضطربة أشد الاضطراب ، متهيجة أشد الابتهاج ، يدفعها القرح والمرح إلى أن تأتى حركات مختلطة فيها الرقص والقفز ، وفيها الجدل والهزل ، وفيها الدعابة التى ليس بعدها دعابة والمجون الذى ليس بعده مجون . حركات على الوجه ، وحركات باليدين ، وحركات فى الجسم كله مجتمعاً وفى أعضائه متفرقة . حركات هى إلى الجنون والاختلاط أدنى منها إلى القرح المعتدل الذى يصدر عن نفس مرحة وعقل مترن . ولم تكتف زنوبة باضطرابها هي ، وإنما انقضت على انقضاضاً ، فقبلتنى وأهضتنى وراقضتنى ودارت بي حول الغرفة دوراناً متصلاً سريعاً حتى انتهت بي وبنفسها إلى السقوط ، كل ذلك وهي مندفعة فى حركاتها وأحاديثها ، لا تمكننى من أن أقول كلمة أو أنطق

بحرف أو آتى من الحركات غير ما تريد . قد استحالتم إلى جنينة وأصبحت الغرفة ميداناً لا اضطرابها المختلط الذى لم يقف ولم يهدأ إلا حين أسقطها الدوار وأسقطنى معها على الأرض وحين أفاقته منه بعد قليل . . . هنالك استطاعت أن تتكلم كلام العاقلة ، واستطعت أن أسمع لها وأن أفهم عنها ، فعلمت أن المهندس فى حاجة إلى خادم ، وأنه قد أرسل يتقدم إليها فى أن تلتصق له هذه الخادم ، وأنه يمنحها على ذلك أجراً يختلف باختلاف الخادم التى تقودها إليه مع الصباح إذا كان الغد . وهي متهيجة لى وهي متهيجة لنفسها ؛ فما أكثر ما قدمت هذا الشاب من خدم ! وما أكثر ما تفاضت منه أجر ما قدمت ! ولكنها لم تقدم إليه يوماً من الأيام فتاة مثلى ، لها مثل ما لى من جمال الوجه ، واعتدال القدر ، ورجاحة العقل ، ومهارة اليد ، والعلم بحاجات الشبان المترفين . سيكون أجراها مضاعفاً . أما أنا فأسعد السعادة كلها فى هذا البيت الأنيق الجميل ، وفى خدمة هذا الشاب المترف الغنى الوحيد . لن تأمرنى سيدة الدار ، ولن ينازعنى عخدم الدار . سأكون وحدي صاحبة السلطان المطلق على بيت هذا الشاب وعلى قلبه إن أحببت ! فقلبه مباح لمن يحسن الوصول إليه والاستيلاء عليه .

قالت ذلك وأرسلت شقيقها المرتفع ، وشخيرها المنكر ، وضحكها العالي ، ثم انقضت على وضعتنى إليها ضماً عنيفاً وهي تقول : « لى لأغبطك وأحسدك معاً . أغبطك لأنى أحبك ، وأحسدك لأنى أود لو أكون مكانك وأظفر بالسلطان على ما يحتوى هذا البيت من نعيم . »

وأنا أسمع منها وأبسم لها وأرفق بها ، فلا أنبها بأنى قد دبرت لهذا اليوم تدبيراً ، وأعددت له إعداداً ، واشتريته بالمال ، وانتظرت مقدمه وثقة

بأنه سيقدم ، مطمئنة إلى أنه سيحين . ولم أظهرها على هذا كله ، وأمرى كله في حاجة إلى الحزم وفي حاجة إلى المكر والكيد .

نعم ! لم أنبها من هذا كله بشيء ، ولم أنبها حين أصبحنا بأن لم اذق النوم لحظة في هذه الليلة الطويلة التي فرقت بين نفسيين ، وإنما قضيت الليل كله بقطعة ، أفكر في أمس البعيد وأفكر في اليوم ، وأفكر في غد وفيما بعد غد ، على حين كانت تحلم بما باعت وما ستبيع من حب ، وبما أخذت وما ستأخذ من أجر ، وبما ذاقت وما بقي لها أن تذوق من هو ، وعلى حين كانت أحلامها هذه المختلفة تدعو جسمها إلى أن يأتي حركات مختلفة تلائمها ، وتدعو لسانها إلى أن ينطق بحمل متقطعة مختلفة توافقها . وكنت أرى ذلك منها وأسمعه ، فأرثي لها وأرثي لنفسي أيضاً : أرثي لها في حياتها هذه الصغيرة الحفيرة التي خلت من كل حس دقيق ، أو شعور عنيف ، أو تفكير عميق . وأرثي لنفسي من حياتي هذه المضطربة التي يملؤها الحس والشعور والتفكير ، وتفعمها الأحداث والخطوب .

نعم ! قضيت الليل كله مؤرقة . وليس من شك في أنه كان طويلاً ، وليس من شك في أنه كان ثقيلاً لو فرغت له ، وليكنى شغلت عن الليل بينات الليل . شغلت عن طول الليل وثقله بصورتك أينما الأخت العزيزة البائسة هذه التي لم تكده تحس أني خلوت إلى نفسي حتى تراءت لي ، ثم دنت إلى ثم استقرت مني غير بعيد ، ثم أخذت تتحدث إلى نفسي حديثاً أعقله ولا أسمعه ، وأجد له في قلبي وقعاً لا ذعاً حلوأ معاً . صورتك هذه التي رأيها كما كنت أراها حين ذهبنا إلى الغرب ، وكما كنت أراها في بيت العمدة قائمة تحت السماء ذاهلة لا تحس شيئاً ولا تلتفت

إلى شيء ، وكما كنت أراها حين كنت أنبهك إلى نفسك وإلى مكاني منك ، وحين كنت أتحدث إليك وأستمع لك ، وحين كنت أواسيك وأعزبك وأجهد في أن أفيض عليك السكينة وأشيع في قلبك الأمن والهدوء . ها أنت ذي تسعين إلى وتجلسين إلى جانبي ، وهذا رأسك قد مال حتى استقر على كتفي ، وهذه يدي تلاطف خدك وتبللها دموعك المنهمرة الصامته . وها أنا ذي أخلي بينك وبين البكاء حيناً وأمضي معك فيه ، ثم أثوب إلى الهدوء وأردك إليه . وهذه يدي تلاطف شعرك الغزير ملاطفة متصلة حتى يملكك الأمن ويوشك النوم أن يضم عليك ذراعيه . ولكنك تهضين وتذهبين . ثم تعودين لي بعد قليل واجهة ثم مروعة ، وأنا أستقبلك رفيقة بك مهتدة لك . وهذه الأشباح الحمراء تترأى لنا كما كانت تترأى لنا في بيت العمدة قبل أن نأخذ في هذا السفر الأثيم ، ولكنك لا تكادين ترين هذه الأشباح الحمراء حتى تهيمى وتهضى إليها ، وتستحيل إلى شبح أحمر بين هذه الأشباح الحمراء ! وها أنتن أولاء تطفن بي وتضطربن من حولي وتستبقن إلى أذني تردن أن تلقين فيهما ألوان الحديث . وها أنا ذي مروعة مضجعة ، أرى الجنون وأشفق منه وأهم أن أصبح ، وأذكر مكاني في دارنا تلك في أقصى الريف نحو الغرب أثناء العلة . وها أنا ذي أرى الينبوع الكريه يتفجر منه ذلك الدم الغزير . وها أنا ذي أنهض خائفة موهة ، أريد أن أفر من هذه الغرفة ، ولكن إلى أين ؟ !

نعم ! إلى أين والليل ساكن جائم ؟ وأين تستطيع فتاة مثلي أن تذهب والليل ساكن جائم ؟ لأوقظن هذه المرأة التي تختلف عليها الأحلام وتنعم بلذة النوم في ناحية من نواحي هذه الغرفة . لأوقظنها ولأقضي

معها بقية الليل في الحديث ... ولكني لا أكاد أسمى إليها حتى تأخذني الأشباح الحمراء من كل مكان ، وحتى تسمى إلى أختي وعلى وجهها ابتسامة شاحبة حزينة مستعطفة ، وهي تلتقي في نفسي هذه الكلمات التي تقع منها مواقع السهام المحرقة : لا توقظيها إنها تخيفنا ، وإن يقطبها تطردنا ، ماذا تخافين منا ؟ لقد طالما ألفتنا وألفناك ، أفسيئتنا إلى هذا الحد ؟ كلا ! كلا ! لم أنسكن ولن أنساكن ، ولن أذودكن عن نفسي ، ولن أوقظ هذه المرأة التي تخيفكن . أقمن معي ، أطفئي بي ، تحدثي إلي ، فمن يدري ! لعل أن أكون في يوم من الأيام واحدة منكن ، لعل أن أكتسي هذا الرداء الأحمر القاني الذي تكتسبه والذي بدعوني إليكن ويخيفني منكن ...

وهذا صوتك أيها الطائر العزيز يحمله إلى الهواء من بعيد فيبلغني نحيلاً ضئيلاً ، ولكنه على ذلك يشيع في سكون الليل كما يشيع الضوء في الجو ...

وهذا صوتك أيها الطائر العزيز يدنو مني شيئاً فشيئاً فيملؤني أمناً ودعة وهبوطاً ، وحزناً معاً . إنه يردني إلى اليقظة الخالصة التي تشعر بنفسها وتفكر في نفسها وتذكر ما مضى على علم به وتقدير له ، وتستقبل ما سيأتي في روية وبصيرة واستعداد للاحتمال ...

نعم ! إن صوتك يملأ أذني ، وإنه يملأ قلبي ، وإنه ليغمر نفسي ، وإنني أفهم عنه ما يريد ، وإنني لأذكر أختي ومصرعها ، وإنني لأعرف من دفعها إلى الموت ، كما أعرف من أذاقها الموت . وإنني لأعلم حق العلم أنني سأعيا إذا كان الغد إلى بيت هذا المهندس فقيمة فيه حيث كانت أختي ، فناهضة بما كانت تهض به أختي

من العمل ، فنتية بعد إلى شيء آخر غير الذي انتهت إليه أختي في ذلك القضاء العريض ...

لقد سمعت منك أيها الطائر العزيز ، وفهمت عنك ، وهذا عقلي يشوب إلى ، وهذه قوتي ترد على ، وما أنا ذى أنتظر الصبح لأسمى إلى هذا المهندس وإن قلبي لمظلم أشد الإظلام ، وإن وجهي لمينهم أجمل الابتسام .

٢٢

وأقبل سيدي الحديد على مبتسماً راضياً بحديق النظر في وجهي تحديقاً طويلاً ، ثم يفصل النظر إلى جسمي كله تفصيلاً ، كأنه يمتحن متاعاً يريد أن يشتريه . ولو قد استطاع لنهض إلى فاختبرني بيديه اختباراً وتعرفني باللمس ، ولكنه كان فيما يظهر قد احتفظ لنفسه ببقية من حياة ، فاكتفى بهذه النظرات المتصلة الطوال التي تجرد المرأة من ثيابها وتجريداً ، والتي كنت ألقاها مضطربة لها أشد الاضطراب ثائرة لها أشد الثورة .

ولكني كنت أتمالك ما وسعني الجهد وضبط النفس ، حتى لا يرى علي اضطراباً ولا ثورة ولا شيئاً ينكره . وهو يسألني عن اسمي ، وعن أهلي ، وعن أمري كله ، فألفق له من ذلك ما ألفتق ، وأزين له من ذلك ما أزين . وهو يسمع مني مصداقاً لي أو غير حافل بما يسمع ، إنما يريد أن يعرف صوتي ووقع حديثي . ثم هو يأمرني أن أقبل وأن أدبر ، وأن أدنو وأن أبعد ، وأن أنحرف إلى يمين وأن أنحرف إلى شمال ، وأنا أستجيب لكل ما يدعوني إليه . وقد هدأ اضطرابي وسكنت نفسي ، وعادوني صوابي ، وأنا أتحدث إلى نفسي بأن هذا الفتى يعرف حقاً كيف يكون شراء الرقيق ...

ثم يقبل آخر الليل ولم يكن يقدر أني سألقاه قائمة باسمي . أقبل إلى في ظلمة الليل يسمى كأنه الحية أو كأنه اللص . ولكنه لم يكذب يبلغ باب الغرفة ويتبين شخصي ماثلاً في وسطها وعلى وجهه ابتسامة شاحبة كأنها ابتسامة الأشباح ، حتى أخذه شيء من الذعر ، فراجع خطوات ثم قال في صوت أبيض جعل يأخذ لونه الطبيعي قليلاً قليلاً : ماذا ؟ ألا تزالين ساهرة إلى الآن ؟ أتعلمين أين أنت من الليل ؟ قلت : لقد تجاوزت ثلثيه ، وما كان ينبغي لي أن أنام قبل أن ينام سيدي ، فما يدريني ! لعله يحتاج إلى شيء .

قال وقد عاد إليه ثباته وهدهده نفسه ، واسترد صوته شيئاً من قبحته المألوفة ودعابته البغيضة : ما رأيت قبلك خادماً مثلك تحسن العناية بسيدها وتنسهر منتظرة لمقدمه إلى آخر الليل . لقد كنت أحسبك فائمة كما تعودت أن أرى من سبقك في خدمتي . وكنت أقدر أني سأجد في إيقاظك بعض الجهد ، فلست أدري ما بال نوم الخدم يثقل حتى كأنهم أموات ! قلت : فقد أرجحت سيدي من هذا الجهد ، وانتظرت مقدمه كما تعودت منذ اصطنعت خدمة المترفين الذين لا يحبون إنفاق الليل في دورهم ، فليأمر سيدي بما يريد . قال وهو يضحك ضحكاً سمحاً وقد مد إلى يداً وددت لو استطعت قطعها ، ولكن تراجعت حتى لا تبلغني : فإن سيدك يأمرك أن تتبعه . ثم انحدر إلى غرفته ومضيت في أثره

وصدق المسكين أني كنت أنتظره . ولو قد نفذ إلى قلبي واستمع إلى أحاديث نفسي لعرف أني لم أكن أرقه في انتظاره ، وإنما كنت أسامر أشباحاً حمراء لو رآها المولى قلبه رعباً ولول من فراراً . ولكن لم ير إلا إياي ، ولم يفكر إلا في ، وما له وللأشباح الحمراء !

وعدت إلى غرفتي بعد ساعة ، راضية عن نفسي كل الرضا ، مطمئنة إلى قوتي كل الاطمئنان ، فقد بلوت الخصم ولقيت العدو في ميدانه الذي اختاره هو ، وكانت بيني وبينه مقدمات النضال ، فلم أضعف له ، ولم أشفق منه ، وإنما ثبت له ثباتاً ، ثم انصرفت عنه وقد علقت بين السخط والرضا ، ووقفته بين اليأس والأمل . لم أجد في شيء من هذا كبير مشقة ، ولم أحتمل في شيء من هذا عظيم عناء ، وإنما هو الابتسام المطمع المغري ، والأحتشام الذي يقل العزم ويشبط الهمم ، ويسيطر سلطان الحياء على النفس فإذا هي ترتد بعد امتدادها ، وعلى الوجه فإذا هو يظلم بعد إشراقه .

وقد كنت أقدر أن المعركة الأولى ستكون عنيفة يملؤها الهول ، ويحرق بها الخطر ، وتنتهي إلى الفصل فيما يكون بيني وبين هذا الشاب فيما ضعف واستثار ، وإما قوة وانتصار ، يتبعهما الطرد العنيف من هذه الدار . ولكني ملكت أمري وملك هو من أمر نفسه ما جعل المعركة الأولى مقدمة لا خاتمة ، وما أجل الفصل في هذه الحصومة إلى أجل ظنه قريباً ورأبته بعيداً . وقد انصرفت عنه بعد أن أعنته على بعض أمره وهيأت له ما يحتاج إليه ، وتركته كاسف البال يظهر الرضا والابتهاج ، وهو يقول : لا بأس ! إنك في حاجة إلى التربية والتعريب .

ولم أكد أثوب إلى غرفتي وأغلق بابها من دوني إغلاقاً محكماً حتى نزلت لي أختي وهذه الظلال التي ترافقها ، كأنما كن يشظرنني ليعلمن علمي وليسمعن نبأ ما أبليت مع الخصم من بلاء . ولقد هممت أن

أتحدث إليهن ، وأقص عليهن ما سمعت وما رأيت ، وما عملت وما أبيت .
ولكن ماذا ؟ إنهن ينظرن إلى نظراً قصيراً ، ثم يلعبن في وجوههن الشاحبة
ابتسامة الرضا ، ثم يستخفين استخفاء كأنما ابتلعهن الظلام ابتلاعاً .
وكنت أظن أني سأنتظر معهن مطلع الفجر ، صامرة كما كنت أسمر
منذ حين قبل أن يرقى إلى سيدي كأنه اللص ، ولكنني ألتسهن من
حولي فلا أرى لمن محضراً ولا مظهراً ، وألتسهن في نفسي فلا أظفر
مهن بشيء . لقد غبن عن عيني وغبن عن نفسي ، وكأنهن أمرن
الذكرى أن تتبعهن ونمضي إلى حيث مضين . فأنا أريد أن أذكر
فلا أستطيع ، وأريد أن أفكر فلا أجد سبيلاً إلى التفكير ، وأنا آوى
إلى مضجعي وقد كنت أزمعت ألا آوى إليه . ولكن للقوة البدنية حداً ،
ولكن للتعب سلطاناً هو بأسطه ، وغاية هو بالغها . ولقد قضيت ليلة
لم أذق فيها النوم ، وهذه الليلة الثانية قد انقضت أكثرها ، وكادت توالى
نجمها تتغور ، فلا بد إذن من بعض الراحة سواء أرضيت أم كرهت . . .

ومن أجل هذا فارتنتي أيتها الأخت العزيزة ، وفارقتني معك هذه
الظلال الحمراء . إنكن لرفيقات بي شقيقات على . وما يمنعكن من
ذلك وأنا عندما تُردن ، لم أهين ولم أضعف . ولم أنهزم لهذا العدو
الماكر القوى ! ليت شعري ! أكتن ترققن بي ، وتشفقن علي ،
وتصرفن عني وتخلين بيني وبين النوم ، لو أني خالفت عن أمركن
واستجبت أو أظهرت الاستجابة لذلك الدعاء البغيض الذي كان يرسله
إلى سيدي بالعين واليد واللسان ؟ !

على أن الأمر بين سيدي وبينى لم يلبث أن تعسر بعد بسر ،
وتعقد بعد سهولة ، واشتد بعد لين . فلكل شيء أجل ، وللصبر أمد
ينتهي إليه ، وللمطاوله غاية تقف عندها ، والمباشرة خير إلا أن تستحيل
إلى ضعف وإذعان . وما ينبغي لسيدي أن يظهر مظهر الضعيف
المذعن لخادم مثلي ليس لها حول ولا طول ، وهي لا تأوى إلى ركن
شديد ، ولا تعتر بقوة تحميها من بأسه وتعصمها من سلطانه ، وإنما
هي كلمة منه تبقىها في داره عزيزة مكرمة أو تخرجها من هذه الدار
دليلاً مشردة . وقد علق سيدي هذه الكلمة في طرف لسانه أياً وأياماً ،
يهم بأن يرسلها حتى إذا بلغت شفثيه وكادت تتجاوزهما إلى الهواء الذي
يحملها إلى ردت إلى مكانها واستقرت في موضعها من طرف اللسان
استقراراً وأطبقت شفثاه من دونها إطباقاً .

ومدت لي أسباب البقاء في هذه الدار يوماً أو بعض يوم ربما
يخرج سيدي لبعض شأنه ، ثم يعود فيدعوني إلى ما كان يدعوني إليه
في هذا الإلحاح المتصل ، المضحك المحزن ، الذي يفسد على الرجل
أمره ويظهره قوياً كأنه الليث وضعيفاً كأنه الفأر ، عزيزاً كأنه السيد
وذليلاً كأنه العبد ، ويطلق لسانه بما شاء له الهذيان من هذه الكلمات
الجوفاء التي يملؤها الاستعطاف حين تكون نذيراً ووعيداً ، وبماؤها
المكر والكيد حين تكون استعطافاً واسترضاءً ، وتصور دائماً تقيض
معانيها الظاهرة ، وتعب دائماً عما لم يرد صاحبها إليه ، ويملاً نظراته بهذا
الشرر المحرق حيناً ، ثم بهذا الانكسار الدليل حيناً آخر ، ويجعله بدور
حول غايته التي يشتهيها وأمنته التي يبتغيها ، كما يدور العابد حول

الصنم ، وكما يدور اللص حول البيت يبتغي ثغرة ينسل منها إليه !
نعم ! كذلك كنت ألقى سيدي مع الصبح باسمة مشرقة الوجه ،
أحل إليه قدح الشاي وبعض الفاكهة قبل أن يثب من سريره . وقد
كان سيدي يحيا حياة الإنجليز ، فلا أكاد أدخل عليه حتى ترتفع إلى
عيناه وقد ملأتهما عواطف شديدة الاختلاف ، ومعان عظيمة التناقض ،
فيها الحب وفيها البغض ، فيها الأمل وفيها اليأس ، فيها الوجد وفيها
الخوف ، فيها الشهوة وفيها الزهد ، فيها القرب وفيها البعد . وأنا أرى
هذا وأحسه وأفهمه ، ولكن : يا لقوة النساء ! إني لأقبل عليه بالشاي
والفاكهة والتحية كأني لا أرى شيئا ، ولا أحس شيئا ، ولا أفهم شيئا ،
ثم أنصرف عنه وفي نفسي ما فيها من الرضا ، وفي قلبي ما فيه من الإشفاق ؛
فقد كنت راضية عن نفسي وساخطة عليها ، وقد كنت شامتة في
سيدي ومشفقة عليه ، وقد كنت أرضى لنفسي ما أنا فيه من الإطماع
والامتناع ، ومن القرب والبعد ، لأعذب هذا الشاب الذي قتل أختي .
وكنيت أنكر على نفسي هذا كله ، وأراه لعباً بالنار ، وتكلفاً للشر ،
وإمعاناً في الإثم . وقد كنت أرى أنني قد خلقت لنفسي جواً من الرذيلة
أعيش فيه إذا أصبحت ، وأعيش فيه إذا أمسيت ، وأنفوس هواءه
المنكر ، وأبعث فيه سماً زعافاً . فما هذا الكيد الذي أكيدته ؟ وما هذا
المكر الذي أمكره ؟ وما هذا التفكير الآثم الذي أملاً به رأسي وقاي ؟ !
أصبح فأفكر في هذا الشاب لأغويه وأضنيه وأنقص عليه يومه ، وأمسى
فأفكر في هذا الشاب لأدنيه وأقصيه وأورق عليه ليله ؛ وأنا فيما بين
ذلك لا أتفك أفكر فيه ، عاطفة مرة ، وصادقة مرة أخرى ، لينة
حيناً وقاسية حيناً آخر .

هذا كثير ! وأكثر منه أن تفرغ له فتاة كانت تستطيع أن تفرغ
لها هو أظهر منه وأنتي ، وأكثر من هذا وذاك أن يستسلم هذا الشاب

لما يغمره من ضعف ، ويتورط فيما يث حوله من شباك ، ويتعلق
بفتاة مهما تكن فهي ليست شيئاً ، والفتيات غيرها كثير يستطيع
أن يلتصقن مني شاء وكيف شاء . وأي شيء أسير من أن يرسل
بستانيه إلى زنوبة أو إلى امرأة أخرى من أشباه زنوبة ، فلا ينقضي
اليوم حتى تكون عنده فتاة أو فتيات يختار من بينهن من يشاء ! فما
أكثر هؤلاء الفتيات اللاتي يلتصقن بالعمل في المدينة قد نشأن فيها أو
انحدرن إليها من الريف كما انحدرت أنا منذ أعوام ؛ ولكن نفس الإنسان
ضعيفة حقاً ، وقوية حقاً . لقد أقبلت على نفس سيدي كما أقبلت
على غيري تلتصق عندي الحب ولذاته وآثامه ، فلما وجدت مني امتناعاً
عليه وصدوداً عنه ونفوراً ملحاً منه ، أعرضت عن الحب ولذاته وآثامه ،
أو أرجأت الحب ولذاته وآثامه وتعلقت بي أنا ، تريد أن تقهرني وتغلبني
على أمري وتنتصر علي ، وتظفر مني بما تريد .

فسيدي لا يطلب عندي الآن حباً ولا لذة ولا إثماً ، وإنما يطلب
إلى خضوعاً وإذعاناً واستسلاماً . هو يريد أن ينتصر لا أن ينعم .
ومن يدري ! لعله إنما يؤجل إقصائي عن داره حتى يتم له النصر ،
ويتحقق له الفوز ، فيخرجني ذليلة صاغرة قد آمنت له وأذعنت
لسلطانه ! ويكني أن يخطر لي هذا الخاطر وإذا أنا مثله متعلقة بالعناد ،
ملحة في الحصام ، قد نسيت الانتقام أو كدت أنساه ، وأعرضت
عن أختي وظلالها الحمراء أو كدت أعرض عنهن ، ولم أتمثل إلا عدواً
يريد أن يقهرني ، ولا بد من أن أقهره ، سيداً يريد أن يسط سلطانه
علي ، ولا بد أن أبسط سلطاني عليه .

وكذلك اتصلت حياتي في هذه الدار هادئة في ظاهر الأمر
منضطربة أشد الاضطراب وأعظمه نكراً في حقيقة الأمر . ألقى سيدي
باسمة ويلقاني باسماء ، ثم لا يتصل اللقاء بيننا حتى يستحيل الابتسام

إلى عبوس ، والرضا إلى سخط . وإذا هر يدعر قاتى ، ويلج في الدعاء
فألج في الإباء ، ويغرى فأرتفع عن الإغراء ، وينذر فأستخف بالندير ،
ويستعطف فأصبر على الاستعطاف .

ثم - يا للهول ! - ماذا أرى ؟ وماذا أسمع ؟ وماذا أجد ؟ هذا سيدى
مائل بين يدى يتلطف ويترفق ثم يستعطف ويستجلى ، ثم هذا هو
جائياً بين يدى كأنه يتقدم إلى بالصلاة ، ثم هذا هو باكياً في صمت ،
ثم هذا هو مجهشاً بالبكاء ، وما أنا ذى أكاد أضعف ويكاد بأخلفنى
الإشفاق لولا أن أجمع قوتي كلها وتنسى كلها وأدعو إلى أختي وظلالها
الحمرء أتمس منهم العون ، وأستمدنهم قوة إلى قوة .

وأضى بعد ذلك فيما كنت فيه من إباء ، ثم ينهى الأمر بيننا
إلى شيء يشبه التوادعة ، وإذا أنا قد أخلصت له ولنفسى ، وإذا
هو قد أخلص لى ونفسه ، وإذا نحن نتحدث في هدوء وأمن واستقرار .
فأما هر فقد استيقن اليأس وعجز عن احتمال ، وأما أنا فأهزون عليه
الأمر مخطئة صادقة وأزين له الانصراف عنى إلى من أحب وما أحب
من الخليلات والتخلى والذات ، وإذا نحن نتفق على أن نفرق ،
وإذا هو ينصرف عنى على ألا يرانى في الدار إذا عاد إليها . وأنا أقبل
ذلك راضية عنه سعيدة به ؛ فقد شئت هذه الحرب وضعفت عن
هذه الحصومة ، وكرهت هذه الحياة التى تملؤها المطاولة والمحاولة ،
وتتقلها المهاجمة والمقاومة ، وقنعت من الغنيمة بالإياب أو بشيء خير
من الإياب . فسأخرج من الدار ظافرة بعض الشيء . أليس قد عجز
هذا الشاب الجميل الوسيم المتروك الغنى القوى أن يبلغ منى ما بلغ
من أمثالى ؟ أولست أخرج من هذه الدار وقد جرعت مرارة الهزيمة
وعلمته أن من فتيات الريف الساذجات الغافلات من يستطعن الثبات
لأمثاله والامتناع على أصحاب الذكاء والجمال والترف والجاه والثراء ؟!

ولقد انصرف عنى هادئاً وقد أظهر الرضا ، وفرغت لأمرى شهياً للرحيل
مزمنة ألا أرى زنوبة ولا ألقاها هذه المرة ولا أقيم في المدينة ولا أعود إلى
أقصى الريف ، وإنما آخذ قطاراً من هذه القطارات التى تمضى إلى
الشمال نحو القاهرة ، أو إلى الجنوب نحو عاصمة الإقليم ، فأرض
الله واسعة ورزق الله ميسر لمن ابتغاه . وما أنا ذى قد حزمت أمرى
وجعت متاعى الخفيف وصممت أن أخرج . ولكن البستاني موكل
بالدار بمنعنى أن أخرج منها ويحول بينى وبين الباب ، ويتبشى بأن سيده
أتى إليه أثناء انصرافه أمراً حازماً صارماً أن يحول بينى وبين الطريق ،
وأن يتكلف ما يستطيع وما لا يستطيع لمسكنى في الدار حتى يعود .
وإذا فلم يكن جاداً حين اتفق معى على أن نفرق . وإذا فلم يكن هادئاً
حين أظهر الهدوء ولا راضياً حين تكلف الرضا ، وإنما كان ماكراً
مخادعاً . ومن يدري ! لعله كان صادق العزم خالص الرأى ، فلما
انصرف عنى تمثل الهزيمة وتمثل آثارها وأعقابها فأبت عليه نفسه أن
يرسل هذه الفتاة ولا يخضعها لما أراد .

وقد استيأست أو كذبت أستينس من ذلك الخاطر الذى كان
يعيننى أول الأمر على المقاومة أو يغرينى بها أو يدفعنى إلى الإغراء
والإطماع ثم إلى الإباء والامتناع ! فقد كنت أعتقد أن لهذا الشاب
فى أرباً . إنه يشتمنى كما اشتهى غيرى من الفتيات ، وإن امتناعى
عليه قد زاده حرصاً على وتعلقاً بى . ولست أكذب نفسى فكثيراً
ما سألتها : أترى شهوته قد استحوالت إلى حب ؟ أما الآن فأنا مستيقنة
أنه لا يحبنى ، بل لم يحبني قط ، وأنه لا يشتمنى ، ولعله يزدرئنى ،
وإنما يريد أن يقهر فى عدواً متمرداً وخصماً عنيداً ؛ فلألقين البأس
بالبأس ، ولألقين العناد بالعناد .

وما كان أيسر الحرب لو أتى رغبت فى الحرب أو فكرت فيه ،

لكني كنت أريد أن أترك الدار جهرة لا سراً ، وعلى علم منه لا على جهل . ومن يدري ! لعل لم أكن أحب أن أترك الدار ، وإن كان هذا الخاطر لم يعرض لي ظاهراً جلياً . وهو يعود مع المساء ، وما أكثر ما يعود الآن مع المساء ، وينفق ليله كله في الدار لا يسمر ولا يلقى أصحابه . ومن يدري ! بم كان أصحابه يعلنون انقطاعه عن السمر وإشارته للعزلة . ولكنه يعود اليوم إلى الدار هادئاً ظاهراً الرضا ، ويلقاني كما انصرف عني مبتسماً في كتابة ، وهو يسألني : أما تزالين هنا وقد فارقتك على ألا ألقاك إذا عدت ؟ !

— أجل ! فارقني على ألا تلقاني ، ولكنك أمرت خادمتك ألا يخلى بيني وبين الطريق .

— ومن زعم لك هذا ؟ لقد كذبت الخادم ، وما أرى إلا أنه حريص على بقائك ، كاره لفراقك ؛ ومن يدري ! لعلك أنت لا تكرهين البقاء معه والاتصال به فهو الذي سماك لي ، وهو الذي أنبأني بمكانك ، وهو الذي جاء بك إلى هذه الدار . إنني إذن لأحمق ، لقد خدعني هذا البستاني ، ولقد اتخذ داري مسرحاً للهوى وهواه . فأنت إذن لا تعرضين عني ولا تمتنعين عليّ إيثاراً للشرف واستبقاء للعفاف ، فقد ذهب الشرف منذ زمن بعيد وضاع العفاف منذ أقبلت أو قبل أن تقبلي على هذه الدار . وفي سبيل من ذهب الشرف ؟ وفي سبيل من ضاع العفاف ؟ في سبيل هذا البستاني الذي تهوينه ، وما أشك في أنه يهواك .

وكان حادثاً مطمئناً حين بدأ هذا الحديث ، حتى لم أكن أشك أنه كان عابثاً متكلفاً يلتمس الوسيلة إلى استئناف ما بيننا من الخصام . ولكنه لم يكذب بمضي في حديثه حتى أخذ هدوؤه يفارقه شيئاً فشيئاً ، ولم يكذب ينهي إلى غايته حتى كان غضباً كله ، وشرّاً مستطيراً يتمثل بإنساناً يتكلم ويتحرك ، ذاهباً جائياً متيناً للبطش لا يكاد يمتنع عنه

إلا في جهد شديد .

على أنني لقيت عنفه هذا وسخطه كما تعودت أن ألقى كل ما قدم إلى من ألوان العنف واللين ، ومن ضروب السخط والرضا ، ثابتة مطمئنة ، وقلت له في هدوء : لا بأس عليك ! خل بيني وبين الطريق ، ثم تبين بعد ذلك أن جمعي بالبستاني جامعة ، أو تصلني به صلة . فلتن خلعت بيني وبين الطريق لأخذ أول قطار ، ولولا أن أشق على مولاي وأكلفه مالا يتكلف السادة الخدم لعرضت عليه أن يضعني في القطار وأن يرسلني إلى أي مدينة شاء ، فإني لا أبتغي إلا أن أعيش ، في حيث آمن على شرفي هذا الذي لم يذهب ، وعلى نقائي هذا الذي لم يضع وإن ظن سيدي في الظنون .

قال في غيظ يشبه الرضا وفي سخرية تشبه الجدل : ما تزالين تذكرين السادة والخدم ! فقد علمت منذ حين أن ليس بيننا سيادة ولا خدمة ، وإنما بيننا ما هو شر من ذلك وأبعد أثراً .

قلت : وما ذاك ؟ قال : هو هذا . . . ثم اندفع إلى هاجماً كأنه الليث يريد أن يزدرد فريسته ازدرداً ، ولكن المرأة لا تغلب إلا إذا أحبت ، ولا تقهر إلا إذا أرادت ، ولا تدعن إلا إذا رغبت في الإذعان . ومن أجل ذلك ارتد عني كما هجم علي ، واستأنف الخصام بيننا كما كان من قبل عنيفاً ليناً ، وملتبساً مستقيماً ، وفيه ما فيه من هذه الألوان التي تفسد حياة العاشقين وتزينها في وقت واحد .

وتتصل الحياة على هذا النحو ، لا أجد لنفسي منها مخرجاً ولا يجد لنفسه منها مخرجاً ، وإنما دفع كل منا إلى صاحبه دفعا ، ورد كل واحد منا عن صاحبه ردّاً ، لا يستطيع أن يخرجني من داري ، ولو قد أراد ذلك لكرهت أن أخرج من هذه الدار ، ولا أستطيع أن أفارقه جهرة ولا خفية ، ولو قد فعلت لطلبتني حيث أكون من الأرض .

فليس عندي شك الآن في أن سيدى لا يشتهى ولا يتغنى أن يظهر على ويتصر على خصم عنيد ، وإنما هو الحب ، هو الحب الذى يطعم في كل شيء ويرضى بأقل شيء ، بل يرضى بلا شيء ، بل هو سعيد كل السعادة ما وثق بأن بيتاً واحداً يحويه مع من يحب ويهوى . هو الحب ما في ذلك شك ، لكن الشك المؤلم المضمي إنما يتصل بهذا القلب الذى يضطرب بين جنى أنا ، فما خطبه ؟ أمبغض هو كما كان مبغضاً من قبل ؟ أرأغب هو في الانتقام كما كان راغباً من قبل ؟ أحافظ هو لعهد هذه الأخت التى صرعت في ذلك الفضاء العريض ، ولعهد الأشباح الحمراء التى تقيم معها على هذا الينبوع الأحمر ، والتى قد طال مقامها معها حول هذا الينبوع ، وانقطعت زيارتها لهذه الدار فلم تلم بها منذ حين ؟

نعم ! الشك في هذا القلب الذى يضطرب بين جنى بعد أن استيقن أن هذا الشاب يحبنى ولا يستطيع عني سلوا . ما خطب هذا القلب ؟ أحب هو أم غير مكترث ؟ فإن تكن الأولى فقيم المقاومة ، وقيم العذاب ، وقيم تعذيب الحبيب ؟ وإن تكن الثانية فقيم البقاء في هذه الدار ، وقيم الصبر على هذه الحياة التى لا تطلق ؟

كلا ! كلا ! فكرى يا آمنة : ماذا أقول ؟ فكرى يا سعاد . . .
فقد محى اسم آمنة منذ دخلت هذه الدار .

فكرى يا سعاد . فقد آن لك أن تفكرى ، واعزى أمرك فقد آن لك أن تعزى ، أقيمى كما تقيم العاشقة أو ارتحلى كما ترتحل القالية ، فأما هذه الحياة المعلقة فليس لأحد فيها خير وليس لأحد فيها غناء ، ولم يبق لك إلى احتمالها سبيل !

وقد فكرت سعاد ، وما كانت في حاجة إلى التفكير . وقد امتلأ قلبها وعقلها بهذه الحياة التى تحياها امتلاء ، واسترجا بها امتراجاً ، حتى أصبحت جزءاً منها أو أصبحت جزءين منها ، وحتى أصبح من أعسر الأشياء وأشقها أن تفكر الفتاة في هذه الحياة تفكيراً هادئاً مجرداً لا يتأثر بهذه العواطف العنيفة الحادة التى تتصور مرة كأنها النور الذى لا تقور بعده ، وتتصور مرة أخرى كأنها الإقبال الذى لا إقبال بعده ، وهى في الحالين شيء واحد تختلف عليه الصور والأشكال دون أن يتغير جوهره الذى هو الحب .

نعم ! لقد أصبحت سعاد عاجزة كل العجز عن أن تخلو إلى نفسها ساعة من نهار أو ساعة من ليل ، بل أصبحت عاجزة كل العجز عن أن تخلو إلى نفسها في لحظة أو نوم ، إنما هى مستصحبة هذا الشاب إن حضر ، ومستصحبة هذا الشاب إن غاب . لا تهم بالخلوة إلى ضميرها حتى تجد صورته ماثلة فيه ، ولا تتمد عينها إلا رأت شخصه ، ولا تتمد أذنها إلا سمعت صوته . قد أخذت الحياة عليها من جميع أقطارها ، وقد زاد عنها كل شيء وكل إنسان ، وزاد عنها حتى أخذتها تلك العزيزة وأشباحها تلك الحمراء . وانتهى الأمر بها كما انتهى الأمر بهذا الشاب نفسه إلى علة تشبه الجنون . لقد صرفت إليه عن كل شيء ، وصرفت إليها عن كل شيء .

ولم يبق بين هذين الخصمين العنيدين صراع أو تفكير في الصراع ، وإنما هو الإذعان الذى لا ثورة بعده والاستسلام الذى لا رجوع فيه . ولكن الكبرياء ما زالت مسيطرة على سعاد ، تصارع الحب فيها

فتصرعه ، وتغالب العشق فيها فتغلبه ، وما أكثر ما اندفعت الفتاة إلى الاستسلام ! حتى إذا تكادت تنهى منه إلى غايته ، وحتى إذا بلغت حافة الهوة وكادت تتردى فيها تمثلت لها الكبرياء قوية عنيقة ، ونصبت أمام عينيها مرآة تنظر فيها فترى صورة آمنة الأبية العزيزة ، وترى صورة سعاد الضعيفة المهالكة ، فترتد وراءها خطوة أو خطوات ، وتوجل الإذعان والإلقاء باليد إلى أجل يقصر أو يطول !

وقد تغيرت سيرة سيدى أيضاً ؛ فهو يحب يلقي من الحب عناء وبلاء ، ويحد من آلامه مثل ما أجده . ولكن كبرياءه قد ردت إليه هو أيضاً فأصبح يتحنى في غير إلحاح ، ويأمل في غير إلحاف ، كأنما أحس في حبه شيئاً من حياء فأثر القصد والاعتدال ، وكأنما أحس الإخفاق المتصل فأثر الحرمان في شيء من العزة على ذلك الإلحاح الذى لم يكن يعقبه إلا هزيمة وخذلان .

ولكنه يقبل على ذات مساء وعلى وجهه ابتسامة فيها شيء من الرضا ، وفيها كثير من الحزن ، وفيها شك يتردد بين الرضا والحزن . يقبل على ذات مساء لا ثائراً ولا مستسلماً ، ويقول لى في صوت لا حدة فيه : لقد آن لك أن تسريحى ، وأن لى أن أسريح ! فأنظر إليه نظرة التى لم تفهم عنه والى تعودت أن تسمع كثيراً فتفهم أو لا تفهم دون أن تحفل بما يستقر في نفسها أو يعزب عنها مما تسمع ، ولكنه بعيد على حديثه فأسأله عما يريد ، فيقول : ستفترق لآنى نقلت إلى القاهرة .

وتقع من نفسى هذه الحملة موقع الصاعقة ، وإذا أنا ذاهلة لا أنجب ولا أتكلف حتى إخفاء الذهول ، وإذا أنا أجده شيئاً من الدوار يكاد يبلغ لى الإغماء لولا أن أتمالك ، وإذا دموع تنهمر في صمت متصل ، وإذا القنى يلدنو منى فلا أرتد عنه ، وإذا هو يضع يديه على كفى فلا أمتنع عليه ، وإنما أنا مغرقة في الصمت ودموعى

ماضية في الانهمار ، والقنى قائم بمكانه منى في هدوء لم أعهده ، ينظر إلى صامتاً دهشاً ، ثم ينأى عنى قليلاً وهو يقول في صوت شاحب : ماذا أرى ! إنك لتكرهين فراقى حقاً !

ثم يعود إلى صمته ، وأمضى أنا في صمى ، وتغضى دموعى في الانهمار . وما أدرى أطال بيننا هذا الموقف أم قصر ، ولكنى أسمع يدعونى في صوت قد فارق شحوبه وعاد ممتكاً مشرقاً كما عرفته ، وأرفع رأسى وأحاول النظر إليه من وراء هذه الدموع المنسكبة فأرى وجهاً مشرقاً أشد الإشراف قد استقرت فيه أمارات الحزم والهدوء ، وإذا هو يقول لى : أما والأمر بيتنا على ما أرى فلن نفترق . مستصحبينى إلى القاهرة ، ولن ينالك منى إلا ما تحين . هلم فامضى في شؤونك كما تعودت أن تفعل ، هنى من أمرك وأمرى للسفر ، فلن نقيم هنا إلا أياماً .

ثم ينصرف عنى كما أقبل على هادئاً رزين الخطا . وقد أنكرت من نفسى كل شيء ، وأهم أن ألوم نفسى على هذا الضعف الذى لم أستطع إخفاءه ، ولكنى لا أجده من نفسى قوة على اللوم ، وإذا أنا راضيه عن هذه الحال الجديدة راضاً عميقاً قد مازج نفسى واختلط بدى ، ولكنه في الوقت نفسه راضاً حزين ليس فيه ابتهاج ظاهر ، وإنما هى حياة الخادم التى اطمأنت إلى ما يلزمها من الأحداث ، وضمت في حياتها لا تنكر شيئاً ولا تعرف شيئاً ، وإنما هى مستسلمة تذهب وتجيء ، وتأتى من الأمر ما تأتى ، وتدع من الأمر ما تدع ؛ لأنها لا تستطيع أن تفعل غير هذا ولا تريد أن تفعل غير هذا ، ولأنها تجد في هذا أقصى ما كانت تنتظر من السعادة .

والغريب أنه هو أيضاً قد جعل ينظر إلى منذ ذلك الوقت نظرات برئت من الطمع والأمل ، وقنعت منى بما يقنع به السيد النقى من الخادم

النقية ، فلا إثم بيننا ولا تلميح إلى الإثم ولا خوف من التورط فيه ، وإنما هي حياة نقية بريئة قد استوفت بيننا كأننا لم نلتق قبل ذلك الوقت ، وكأن أحدنا لم يعرف صاحبه قبل تلك الساعة التي أنبأني فيها أنه قد آن لكليتنا أن يسريح لأنه نقل إلى القاهرة .

وإني لأدعو أخني حين أخلو إلى نفسي في النهار وحين أخلو إلى نفسي في الليل فلا تستجيب لي صورتها التي كنت أعرفها في المدينة باسمه مشرق ، ولا تستجيب لي صورتها التي عرفتها في بيت العمدة واجمة هائمة ، ولا تستجيب لي صورتها التي كنت أراها مطرقة إلى ينبوعها الأحمر ، تطيف بها ظلالها الحمراء .

لا تستجيب لي صورة من هذه الصور ، وإنما هي ذكرى غامضة حزينة تلذع القلب أحياناً فتندفع لها بعض الزفرات وقد تنهمر لها بعض العبرات ، ثم لا تلبث أن تنجاب كما ينجاب السحاب الرقيق ، وإذا أنا أعود إلى حياتي المضيفة الحادثة ، الحزينة في غير تكلف لحزن أو سرور . وأنتقل مع سيدي إلى القاهرة وأقيم معه في دار أبيه موكلة بخدمته لا أكلف شيئاً غيرها من أعمال الدار ، ولا أجد من أبيه إلا برأ وعطفاً ، وإلا رفقاً وحناناً . فأما هو فقد جعل ينظر إلى كلما تقدمت الأيام كما ينظر إلى الصديق لا كما ينظر إلى الخادم ، قد اصطفاني لنفسه ، واختصني بوده ، وجعل يشركني في كثير من أمره .

يا لله ! إني لأحس شهاً بين هذه الحياة التي أحياناها مع هذا الشاب في دار أبيه الفخمة بالقاهرة وبين تلك الحياة التي كنت أحياناها مع خديجة في بيت أبيها بمدينة من مدن الأقاليم . لقد عاد الأمر بيني وبين هذا الشاب إلى مثل ما كان بيني وبين خديجة من النقاء والظهر . ألم أخلق إلا لأحيا حياة الأصدقاء !

ولكنها صداقة غريبة هذه التي تقوى وتنمو بين هذا الشاب المترف

النقي ، وهذه الخادم البائسة التي طالما طمعت فيها نفسه الطامحة ، وأغرته بها عواطفه الجامحة ، والتي طالما اتخذها غرضاً لأهوائه الآثمة ، وابتنى عندها من اللهو والمجون ما يبتغيه أمثاله من الشباب المترفين عند أمثالها من البائسات الغافلات ، فلما لم يظفر منها بشيء حاصرها كما تحاصر القلعة ، وحاربها كما يحارب العدو ، فلم يستطع أن يقهرها ، ولم يستطع أن يقهره . وأقاما معاً في شيء من المودة لا يستطيع عنها سلواً ، ولا يستطيع عنه انصرافاً ، لا يشير إليها من أعماله وعظامه بقليل أو كثير ، ولا تلقاه هي من مقاومتها وامتناعها بقليل أو كثير لأنها لم تعد في حاجة إلى المقاومة أو الامتناع .

أأكذب نفسي أم أصدقها ؟ أأصارعها بالحق أم أموه عليها الأمر ؟ لقد رضيت حياتنا الجديدة واطمأن إليها قلبي كل الاطمئنان ، واغبتت بها نفسي أشد الاغبتاط ، وارتاح إليها ضميري هذا المتعب المعبذب الذي كان في حاجة إلى أن يرتاح . ولكن أظل قلبي مطمئناً ونفسي مغتبطة وضميري مرتاحاً بعد أن مضت علينا الأسابيع والشهور في مدينة القاهرة قريبين بعيدين مؤتلفين مختلفين ؟ ألم أشعر شعوراً غامضاً بأن هذه الهدنة قد طالت وبأن هذه المودة قد اتصلت أكثر مما كان ينبغي أن تتصل ؟ ألم أجد في أعماق ضميري شوقاً إلى تلك الحرب وجوحاً إلى ذلك الخصام ؟ ألم أحس في دخيلة نفسي أن حياة هذا الشاب قد يكون لوناً من الصدق وأن احتشامه قد يكون فتناً من الإغراء ؟ بلى ! وجدت هذا كله وأنكرته من نفسي أشد الإنكار ولها فيه أعنف اللوم ، وما أشك في أنه وجد من نفسه مثل ما كنت أجد ، ولأم نفسه في مثل ما كنت ألوم نفسي فيه .

وقد زاد هذا الحمل ثقلاً على نفسه وعلى نفسي أنه صار منذ انتقل إلى القاهرة سيرته تلك التي ألفها في الأيام الأخيرة من حياته في الأقاليم .

فكان يقدو إلى عمله مصباحاً ويروح إلى دار أبيه حين يتقدم النهار فلا يكاد يخرج منها إلا إذا كان الغد . ومع ذلك فأمثاله من الشباب لا يلبسون بلورهم إلا ليخرجوا منها ، إنما دورهم فنادق يطعمون فيها ويأوون إليها آخر الليل . وفي القاهرة مما يفتن الشباب ويغريهم شيء كثير طالما سمعت أحاديثه قبل أن أبلغ القاهرة وبعد أن أقمت فيها . فما بال هذا الشاب لا تبلغه فتنة ولا يتاله إغراء ؟ لقد رضى أبواه أول الأمر عن هذه الحياة المستقيمة كل الرضا ، وابتهاجا بمحضرة ابنهما كل الابتهاج ، ولكنهما رجلا آخر الأمر أن الفتى قد أسرف على نفسه في لزوم الدار والمكوف على القراءة والانقطاع عن الأندية وما يكون فيها من لقاء الأصدقاء والتعرف إلى الناس . وكثيراً ما رغبته أمه في الخروج فلم يستجب لهذا الترغيب ، وكثيراً ما أغراه أبوه بملاعب التمثيل ومجالس الموسيقى وزيارة هذا البيت أو ذاك من بيوت الأصدقاء فلم يستمع لهذا الإغراء ، إنما هو القدو على العمل والرواح إلى الدار ، والأوقات ينفقها مع أبيه ، ثم الانحياز إلى غرفته والانقطاع إلى كتبه يعكف عليها حتى يتقدم الليل .

وكان في أثناء ذلك ربما دعاني إلى غرفته وأخذ يتحدث إلى ويسمع مني ، وكانت المدينة وشؤون أهلها موضوع حديثنا في كثير من الأحيان ، كما كانت القاهرة وشؤونها موضوع حديثنا أحياناً أخرى .

كان يتحدث أو يسمع جالساً إلى مكتبه ، وكنت أتحدث أو أسمع واقفاً غير بعيدة من مكتبه . وما أكثر ما دعاني إلى الجلوس وما أشد ما كنت أتمنى الجلوس ! ولكنني كنت أعتذر بأسمة ، فما ينبغي لمثل أن تجلس إلى مثله وإنما حسب مثلي من مثله الوقوف بين يديه والتحدث إليه والاستماع له ، وهذا كثير .

ألم تكن غريبة هذه الصداقة بيني وبين هذا الشاب على ما كان

بيننا من الائتلاف والاختلاف ؟ أكانت صداقة خالصة أم كان وراءها أكثر من الود الذي يكون بين الأصدقاء ؟ ! أما أنا فقد كنت أجد وراء هذه الصداقة حباً ثائراً أكتمه على ما كان يكلفني كتمانها من الجهد ويحتملي من المشقة والعناء . وأما هو فقد كتم أمره أسابيع وشهوراً حتى خدعني أو كاد يخدعني عن نفسه ، ولكنه ألقى النقاب ذات مساء فغير من أمرنا كل شيء . ، اللقاء في غير جهد وفي غير تكلف ، لم يضطرب له صوته ، ولم يظهر على وجهه أثر العواطف المضطربة أو القلب الذي تضطرم فيه نار الحب . إنما تحدث إلى في هذا الأمر كما كان يتحدث إلى في أمر المدينة وفي أمر القاهرة بصوت لا ارتفاع فيه ولا انخفاض ولا اعوجاج فيه ولا التواء !

قال : ألا ترين أن الأمر بيننا قد آن له أن ينشئ إلى غايته ويبلغ مداه ؟ قلت : وما ذاك ؟ قال : هذا الحب الذي اختصمنا فيه وقتاً طويلاً وسكتنا عنه وقتاً طويلاً ، ولكنه لم يسكت عنا ، فما أظنه قد أمهلك يوماً كما أنه لم يمهلي ساعة . أما ينبغي أن تنشئ هذه الحياة الغامضة إلى ما يجب لها من الصراحة والوضوح ؟ وقد سمعت منه ولكنني لم أرد عليه جواباً .

فلما طال عليه صمتي استأنف حديثه في صوت لا يزال سواء ، فقال : إنك تفهمين عني اليوم ما أريد ، كما فهمت عني من قبل ما كنت أريد . قلت مبسمة : بل إني لم أفهم عنك شيئاً . قال ضاحكاً : بل تفهمين أنني كنت أريدك على الإثم ، وإني الآن إنما أريدك على الزواج .

واحتجت إلى أن أعتد على كرمي كان مني غير بعيد ، فإن فكرة الزواج لم تخطر لي قط ، وما كان ينبغي أن تخطر لي ؛ فقد أقدمت على كثير من خطير الأمر وتصورت في نفسي كثيراً من جليل

العمل ، ولكني احتفظت دائماً بعقلي ولم يخرجني الحب كما لم يخرجني
البغض ، ولم يخرجني الأمل كما لم يخرجني اليأس ، عن طوري في لحظة من
اللحظات . لذلك أجيبه صادقة بأن هذا أمر لا ينبغي العبث فيه .
قال وهو يضحك : فإنك تظنين أنني أعبت ، وتقدرين ما بينك
ومني من الفرق الاجتماعي متى تزوج السيد الغني المترف من خادمه
الشقية الفقيرة البائسة ! أليس هذا هو ما تقدرين ؟ فأريحي نفسك
إذن من كل هذه الخواطر ، فقد رأيت منذ موقفاً ذاك في المدينة أنني
لست سيداً كغيري من السادة ، وقد رأيت أنا منذ عرفتك أنك لست
خادماً كغيرك من الخدم . لقد دهشت حين رأيتك تنتظريني إلى آخر
الليل على غير ما تعودت من الفتيات اللاتي سبقنك إلى خدمتي ،
ولكني لم أكن أقدر أنك مستثيرة في نفسي ألواناً أخرى من الدهش .
ثم أطرق صامتاً فأطال الإطراق والصمت ، وليت مائلة ذاهلة
لا أقول شيئاً ، وأكاد لا أعي شيئاً ، ولكنه رفع رأسه ، وقال في صوت
هادئ حزين : أتقبلين ؟ قلت في صوت ليس أقل من صوته هادئاً
ولا حزناً : فإن سيدي يعلم أن ليس إلى هذا من سبيل . قال : تفكرين
في أبوي ! فإنني قد فكرت فيهما قبلك وقد حزمت أمري ، وما أشك
في أنهما لن يمتنع علي ، ولو قد فعلا لعرفت كيف أمتنع عليهما ،
ولكنهما لن يفعلا ، فهل تقبلين ؟ قلت : ليس إلى ذلك من سبيل .
قال : فمن حتى عليك أن أفهم هذا الامتناع ، إنك لتعلمين أن فراقاً
بيننا مستحيل ، وإنني لأعلم كما تعلمين أن ليس لقلبي رضا إلا في
الزواج . قلت : فقد قضى على قلبي ألا يرضيا . قال : ومن ذا الذي
قضى عليهما هذا العذاب المتصل ؟ وهممت أن أجيب ولكن صوتي
يحبس ، ودمعي ينطلق ، وإنني لأراني أهم بالانصراف ، وإنني لأراه
قد نهض من مجلسه متاثلاً وسعى إلى متباطئاً حتى ردت في هدوء ودعة ،

ثم عاد إلى مجلسه وقال : أترين إلى كيف أملك نفسي ! ألا تفكرين
في تلك الثورة الجارحة التي شقيت بها وقتاً طويلاً .

أنبئيني من ذا الذي قضى علينا هذا العذاب المقيم ؟ قلت : أنت
الذي قضى علينا هذا العذاب المقيم ، وأنا التي قضت علينا هذا
العذاب المقيم . كلانا قضى على صاحبه ما نحن فيه من شر وفكر ،
وكلانا أتاح لصاحبه ما نحن فيه من هذه المواقعة المصادفة التي لا ينبغي
أن نطمع في خير منها فليس في الحياة خير منها بالقياس إليك ولا
بالقياس إلى . قال : فإن حديثك لم يزد إلا غموضاً . قلت : فخير
لنا أن نقبله على ما فيه من غموض . قال : وقد ظهر أنه يبذل جهداً
ليحتفظ بهلوته : فإنني أقسم لك أنني لم أعد أستطيع صبراً على هذه
الحياة . قلت : وأنا أيضاً لا أستطيع صبراً على هذه الحياة ، ولكن
ما الذي نستطيع أن نفعل وقد سبق القضاء بما لم نحب . قال : أي
قضاء ؟ ألم يأن لك أن تنصحي ، ألم يأن لي أن أفهم ، ألم يأن لهذه
الظلمة أن تنجاب ؟ قلت : أحريص أنت على ذلك ؟ إنني لأخشى
إن انجابت عنا هذه الظلمة وغمرنا الضوء أن يكره كل واحد منا النظر
في وجه صاحبه . قال : وقد غلبه العنف ، فارتفع صوته قليلاً واضطربت
يده اضطراباً خفيفاً : بل أنا أريد أن أفهم مهما تكن العاقبة . قلت :
فأذن لي إذا بالجلوس ، ولم أنتظر إذنه ، وإنما جلست على هذا الكرسي
الذي كنت أعتد عليه ، وألقيت عليه قصتي في صوت هادئ مطرد
لا يبله الهم ولا يظهر فيه الحزن ، ولا ينم عن قليل أو كثير من الاضطراب
إنما ألقيت عليه قصتي كأنني أتحدث عن شخص غريب إلى شخص
غريب .

وما أدري أطلال الوقت الذي ألقيت فيه قصتي أم قصر ، ولكني
أعلم أنني سمعتني أقول : أفهمت الآن ؟ أترى إلى هذا الضوء الذي

يغمرنا ؟ نستطيع أن ننظر إلى ؟! وقد انتظرت جوابه لحظه غير قصيرة ، ولكنى سمعته كأنما كان يتحدث إلى من مكان بعيد جداً ، سمعته يقول : نعم ! أستطيع أن أنظر إليك ، ولن أستطيع أن أنظر إلا إليك ، وأنت أنطيقين أن تنظري إلى ؟ أما زلت تضررين الانتقام ؟ ولم أجب إلا بما تجيب به المرأة المغلوبة التي انكسرت نفسها وذاب قلبها ، فهو يسيل من عينيها دموعاً . ثم أسمعته بعد وقت لا أدرى أكان طويلاً أم قصيراً يقول لى : لقد كان من الممكن أن نفترق قبل أن يغمرنا هذا الضوء ، فأما الآن فقد أصبح افتراقنا شيئاً لا سبيل إليه . أليس من العجب أن يكون هذا الضوء الذى أخذ يغمرنا شراً من الظلمة التى خرجنا منها ؟ إن أحدنا لن يستطيع أن يهتدى فى هذا الضوء إلا إذا قاده صاحبه . إن العبء لأثقل من أن تحمليه وحدك ، وإن العبء لأثقل من أن أحمله وحدى ، فلنحتمل شقاءنا معاً حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً .

ثم انقطع الحديث بيننا فلم يقل شيئاً ولم أقل شيئاً ، وأطبق على الغرفة صمت هائل رهيب ! غرقنا فيه يقظين كما يغرق النائم فى نوم برىء من الأحلام .

ولكن صوتك أيها الطائر العزيز يبلغنى فينتزعنى انتزاعاً من هذا الصمت العميق ، فأثب وجلة مذعورة ، ويثب هو وجلاً مذعوراً ، ثم لا نلبث أن يثوب إلينا الأمن ويرد إلينا الهدوء ، فأما أنا فتنحدر على خدى دمعتان حارتان . وأما هو فيقول وقد اعتمد يديه على المائدة ، دعاء الكروان ! أترينه كان يرجع صوته هذا الرجيع حين صرعت هنادى فى ذلك القضاء العريض ! !

القاهرة ، سبتمبر ١٩٣٤

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٤/٤٩٤٤

I.S.B.N 977-01-3821-5